المدح في شعر القُطاميّ

د. يونس إبراهيم أبو مصطفى

أستاذ الأدب العربي القديم – المشارك

جامعة بنغازي – كلية التّربية – بنغازي

البريد الالكتروني :

younis_ibrahim2008@yahoo.com

ملخّص البحث :

تدور هذه الدّراسة حول المدح في شعر القُطاميّ الشّاعر الأمويّ ، الّذي لم يحظَ بشهرة كأقرانه آنذاك ، ومع ذلك أثنى عليه النّقاد والدّارسون القدماء و المحدثون ، وقد احتلّ المدح جانباً كبيراً من شعره ، ومدح شخصيات مهمّة ، من أجل تحقيق أهداف بعينها ، مدح كلّ شخص بما فيه ، فهو خبير بالأمور الّتي تحرّك العطاء ، خبير بالمواصفات والتّقاليد الّتي جرى عليها مدح الخلفاء والأمراء ، وسار على خُطا من سبقوه ، وكان ملتزماً بالمواصفات الشّعرية القديمة ، واكتفى بتكرار المعاني الّتي طرّقها المادحون قبله مع شيء يسير من التّجديد والتّميّز .

واللافت أنّ شعر مدحه يُقسّم – تقريباً – إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : صدر عن إخلاص صادق ، نابع من قلب مفعم بالوفاء والاعتراف بالجميل .

والآخر : قصد به العطاء وطلب الجائزة .

والأخير : كان هدفه خدمة العصبيّة القبليّة .

Abstract :

The praise In the poetry of Al-Qutami

This study revolves around the praise in the poetry of Al-Qutami, an Umayyad poet. Although he did not achieve as much fame as his fellows did at the time, he was acclaimed by ancient critics and recent scholars. Praise was actually occupied a significant part of his poetry. As he had the expertise to inspire generosity, he praised important leading figures in order to achieve certain goals. However, he also praised people for whatever personal quality they actually had. In fact that he Knew the specifications and traditions that were used in praising the caliphs and emirs. Nonetheless; he confined himself to the ancient poetic specifications that followed by his predecessors, and he also contented himself with methods of repeating meanings that were raised by them with very little modernization.

It is noted that his praise can be divided into three parts:

The first : Released by the dedication stems from a sincere heart full of fulfillment and gratefulness,

And the other : Intended for gifts and generous donations,

And last : Aimed at serving tribalism

المقدّمة :

الحمد لله على جلائل نعمه ، وفواضل آلائه وقسمه ، والرّغبة إليه فيما يزلف لديه ، ويمهّد المنزلة عنده ، ويوجب الحظوة عنده ، والصّلاة على خير بريته محمّد ﷺ وعترته .

سبب الاختيار : القُطاميّ عُمير بن شُيَيم شاعر إسلامي ، محبّ للسّلام والوئام (الأصفهاني ، 1992 : 24 / 21 ، وما بعدها) ، حريص على اجتماع الشّمل ، محبّ لقبيلته يمدحها ، يفتخر بها ، يشارك في أيامها ، يُمجّد شجاعتها ، وفيّ معترف بالجميل ، يحيط به غموض باتّصاله الفعليّ بممدوحيه ، وهو حلقة في سلسلة الغموض الّذي يحيط بحياته عموماً .

لم يحظَ بشهرة كأقرانه أمثال جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، ولم يلتفت إليه النّاس ، ذلك أنّه لم يتّصل بالسّياسة والحاكمين ، ومن ثم لم تُسلط عليه الأضواء آنذاك ، ومع ذلك أثنى عليه النّقاد القدماء ، فقد جعله ابن سلّام في الطّبقة الثّانية من شعراء الإسلام مع البَعيث ، وكُثيّر ، وذي الرُّمة ، فقال عنه : " كان القُطاميّ شاعراً فحلاً ، رقيق الحواشي ، حلو الشعر " (ابن سلام الجمحي ، 2001 : 65) .

ووصفه ابن قتيبة في كتابه : الشّعر والشّعراء بأنّه : " كان حسن التّشبيب رقيقه " (ابن قتيبة ، 1952 : 2 / 723) .

أمّا المرزباني في معجم الشّعراء ، فقد ذكر أنّه : " كان شاعراً فحلاً ، رقيق حواشي الكلام ، كثير الأمثال في شعره " (المرزباني ، 2005 : 102) .

أهميّة الدّراسة : تهدف هذه الدّراسة إلى التّعرّف على منهج القُطاميّ في مدحه ، فقد احتلّ المدح جانباً كبيراً من شعره ، ولمعت في ديوانه أسماء مشهورة ، وهنا نتساءل : هل كان مدحه لهؤلاء من أجل المنفعة الذّاتية ، والمصلحة الشّخصيّة ؟ أم كان من أجل العصبيّة القبليّة ؟ أكان مدحه سياسياً لإثبات حقّ بني أميّة في الخلافة إذ إنّهم – كما زعموا – خلفاء الله في الأرض ؟ وبعبارة أخرى أيدخل مدحه في إطار النّفاق السّياسيّ من أجل تحقيق مآرب مختلفة ؟ أم كان مدحه ردّاً للجميل ، ويصب في معين الوفاء والاعتراف بالفضل ، وهل اتّسم بالإخلاص والوفاء والصّدق لكلّ ممدوحيه ؟ وهل ثمة تفاعل حقيقي بينه وبين ممدوحيه ؟ وهل مدحهم بما فيهم؟

وهل تميّز في مدائحه ؟ هل جارى شعراء ما قبل الإسلام ، وسار على منوالهم متأثّراً ببيئته الّتي عاش فيها ؟ أم أنّه تأثّر بشعراء عصره وتعاليم الدّين الإسلامي الحنيف .

وما السّر في أنّ معظم مدائحه اُستهلت بالوقوف على الأطلال ؟

كل هذه التّساؤلات يجيب عنيها البحث ، ويكشف عنها النّقاب ، وتوضّح فلسفته في المدح .

الدّراسات السّابقة : حظي شاعرنا باهتمام عدد من الدّارسين من العرب والمستشرقين قديماً وحديثاً ، وممّن أرّخوا لتاريخ الشّعر العربي ، فمنهم من ترجم له أمثال : د. عمر فرّوخ ، ود. شوقي ضيف ، وجرجي زيدان ، وكارل بروكلمان ، ورجيس بلاشير ، ولويس شيخو ، وهناك مؤلّفات اهتمّت بعرض جانب من شعره ، فقد أفرد د. محمّد مصطفى هدارة في كتابه : " دراسات في الشّعر العربي : نحليل لظواهر أدبية وشعراء " حديثاً حول موقفه من الحرب ، واستعرض د. زكي المحاسنيّ في كتابه : " شعر الحرب في أدب العرب " دوره في حرب قبيلته ، و تعرّض له د. عبد القادر القط في كتابة : " في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ " في إطار حديثه عن بعض القضايا الفنيّة والأدبيّة ، وتناول حياته وشعره ، د. زكي عابدين غريب في كتابه : " القطامي حياته وشعره " ، بينما تحدّثت مرزوقة عبد الله الغيابي عن " التّصوير البيانيّ في شعر القُطاميّ " دراسة وتحليل " ، وكتب د. نزيه كسيبي بحثاً بعنوان : " البعد الفلسفي في شعر القُطاميّ " .

ولعلّ أهم المصادر والمراجع الّتي اعتمد عليها الباحث ديوان القُطاميّ ، تحقيق د. إبراهيم السّامرائي ، وأحمد مطلوب ، وديوان القُطاميّ دراسة وتحقيق د. محمود الرّبيعيّ ، والأغاني للأصفهانيّ ، ولم أتمكن من الحصول على كتاب القُطاميّ حياته وشعره د. زكي عابدين غريب.

خطة البحث : يحتوي البحث مقدّمة ، وفصلين ، تناول الفصل الأوّل معنى المدح لغة واصطلاحاً ، والمدح السّياسي في عصر بني أميّة ، بينما كان الفصل الثّاني عن معاني المدح عنده المتمثّلة في الشّجاعة ، وكرم اليد ، وكرم الأصل ، والسّيادة وغيرها من معاني المدح ، وقد ذُيّل البحث بخاتمة أظهرت أهم ما توّصل إليه البحث من نتائج .

هذا وقد واجه البحث عدّة صعوبات ، لعلّ أهمها تداخل مدحه ، تارة بالممدوح ، وأخرى بقوم الممدوح ، وثالثة أنّه يخصّ قومه بالمدح والثّناء ، أما الصّعوبة الأخرى الجديرة برصدها ، وأجد صعوبة في التّعبير عنها ، فقد شرعت في قراءة الدّيوان للوقوف على معاني المدح عند شاعرنا ، وانقطعت عن القراءة بسبب الظّرف الاستثنائي الّذي عاشته البلاد ، وكلّما عدّت للدّراسة والبحث تزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر تتوقّف عجلة التّفكير والتّركيز ، يُصاب الفهم والقريحة ، كيف لا ، ونحن نقطن في مكان جدّ خطير ، شاهد أمين بالأدلّة والبراهين على ما نقول ، لكن الاستعانة بالصّبر والصّلاة والدّعاء ذلّلت هذه الصّعوبة ، فوصل البحث إلى ما وصل إليه.

منهجية البحث : اعتمد البحث على المنهج الوصفي التّحليلي .

لقد بذلت غاية الجهد ، وحاولت مخلصاً أن أبلغ ما أتمناه من جعل هذا البحث رصيناً جديراً بالقبول ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب .

الفصل الأوّل

المدح السّياسي في عصر بني أمية

يُعدّ المدح في عصر ما قبل الإسلام من أهم الموضوعات ، من غير أن يطغى على سائر الفنون ، فقد أثنى الشّعراء على مناقب قبائلهم وساداتها ، وكانوا كثيرا ما يمدحون القبيلة الّتي يجدون فيها كرم الجوار ، والعزّة والإباء ، والشّجاعة والكرم ، (يُنظر ، على سبيل المثال المفضّل الضّبي ، 1920 : 59 ، 98 ، 99 ، 254 ، 599 ، 750) ، ويذكرون مناقب السّادة ، حيث : الشّجاعة والإقدام ، والحزم والعزم ، والحلم ، ورجاحة العقل ، وإغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، فهو ضرب من الفخر .

وقد يكون المدح خدمة للقبيلة ، وخير مثال على ذلك ما فعله دريد بن الصّمة سيد جشم ابن بكر ، وفارسهم ، إذ مدح قوماً أغاروا على قومه ، فحملهم على ردّ السّبايا وفك الأسرى ، وردّ الأموال بعد أن عجز عن ردّها بالقوّة (يُنظر ، أبو حاقّة ، 1962 : ، 59 وما بعدها ، ويُنظر ، الخبر والأبيات في الأصفهاني ، 1992 : 10 / 37 – 38) .

ومن المديح الجاهليّ ، ما نُظم في تمجيد الأحلاف ، حفاظاً على قوّة القبيلة المتحالفة ، وتهديداً لأعدائها ، وقد يوجّه المديح إلى ملك ، أو زعيم ، رجاء اكتسابه في جانب قبيلة الشّاعر ، أو رجاء الإفراج عن جماعة من قبيلته قُبض عليهم لذنب اقترفوه ، فكان المديح شفاعة لهم . يُنظر ، (أبو حاقة ، 1962 :51 وما بعدها).

وكان بعض السّادة تمتد مآثرهم إلى من حولهم من القبائل ، فكان بعض الشّعراء يمدحونهم اعترافاً بمكرماتهم وشكراً لصنيعهم ، كأن يفكّوا أسيراً ، على نحو ما فعل خالد بن أنمار ابن أخت المثقّب العبديّ ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، منها قوله :

باكِرُ الجَفنَةِ رِبعِيُّ النَدى حَسَنٌ مَجلِسُهُ غَيرُ لُطَم

(المفضّل الضّبي ، 1920 : 592) .

والجدير بالذّكر أنّ قضية التّكسب بالمدح شغلت النّقاد والدّارسين قديماً وحديثاً في هذا العصر .

ذكر ابن رشيق أنّ النّابغة الذّبياني أوّل المتكسّبين بالشّعر ، وقد خضع للنّعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته ، أو من سار إليه من ملوك الغساسنة ، فسقطت منزلته ، وتكسّب مالاً وفيراً حتّى كان أكله وشربه في صحاف الذّهب والفضّة ، (يُنظر ، ابن رشيق ، 2006 : 1 / 70) وذهب ابن قتيبة إلى أن الشّاعر الجاهليّ كان يستهلّ قصيدته بالوقوف على الأطلال وبكاء الدّيار ووصف الرّحلة في الصّحراء ، وما يعانيه من متاعب وما يُلاقيه من مكاره ، ثم يبدأ بالمدح ويهزّ ممدوحه للسّماع ويبعثه على المكافأة . يُنظر، (ابن قتيبة 1958 : 1 / 74 – 75) .

أغلب الظّن أنّ كثيراً من شعراء هذا العصر مدحوا ساداتهم وكبراءهم لجميل صنعوه ، أو معروف أسدوه ، والسّادة كُثر ، ومآثرهم متعدّدة ، وقيمهم متنوّعة ، وبطولاتهم نادرة ، فلا عجب أن ينبري شاعر القبيلة مادحاً ، معتزّاً بهذه المناقب والمآثر ، مفتخراً بها ، فهو جزء منهم ، وهو لسان حال قبيلته ، والنّاطق الرّسميّ باسمها ، ووسيلتها الإعلاميّة ، وربما ينال نصيباً من حال هؤلاء السّادة ، وغيرهم من الملوك ، لكن هل كل الشّعراء فعلوا ذلك ؟ هل فعلوا ذلك من أوائل العصر ؟ ذكر د . شوقي ضيف أنّ الشّعراء اتّخذوا وسيلة للكسب في أواخر العصر الجاهليّ ، فهؤلاء قدموا إلى السّادة لنيل جوائزهم وعطاياهم الجزلة ، وقد اشتهر بذلك : زهير بن أبي سلمى ، والنّابغة الذّبياني ، وحسّان بن ثابت ، وقد افتخر زهير بأشراف قومه ، وحسّان بالغساسنة ، والنّابغة اختصّ بالنّعمان بن المنذر . يُنظر، (د . ضيف ، 1960 : 211) .

وتناول أبو حاقّة هذه القضية بشيء من التّفصيل ، ورأى أنّ ظهور التّكسّب بالمدح منذ الجاهلية ، فقد عرفه زهير بن أبي سُلمى ، والملتمس ، وطرفة بن العبد ، والمنخل اليشكريّ ، والحطيأة ، ومن لفّ لفيفهم ، ولكن هؤلاء بمجملهم على شيء من عفّة النّفس ، يغلب على طابعهم الأنفة في السّؤال ، وقلّة التّعرّض لما في أيدي النّاس (يُنظر ، أبو حاقّة ، 1962 : 40 – 41) ، وأضاف أنّ المديح المكتسب جاء في الجاهلية نتيجة للتّطوّر الّذي أصاب المجتمع ، وعلاقة الفرد بالآخرين في داخل القبيلة وخارجها (يُنظر ، أبو حاقّة ، 1962 : 41) ، فقد اتّخذ المناذرة المديح وسيلة للدّعاية لهم في القبائل ، فكثر الشّعراء حولهم ، وأخذ يموج بلاطهم بهم منذ عمرو بن هند ، وكان النّعمان بن المنذر ممدحاً للشّعراء ، وانتهى هذا الفن إلى الأعشى ، فأصبح حرفة خالصة للتّكسّب إذ لم يترك الأعشى ملكاً ولا سيّداً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا وقصده ومدحه من أجل العطاء . يُنظر ، (د. ضيف ، 1960 : 211 – 212 ، أبو حاقّة ، 1962 : 52 ، وما بعدها ، ود. حسين ، بلا تاريخ : 102) .

لا يُنكر ذلك د. يحيى الجبوريّ ، ولكن بتحفّظ ، وقد علّق على قول ابن قتيبة السّابق بأنّه يصدق على الشّعر الأمويّ ، الّذي صار فيه الشّعر وسيلة للارتزاق ، وأمّا الشّعر الجاهليّ ، فلم يظنّ فيه من الّذين سألوا الشّعر أو مدحوا تكسّباً ، غير الحطيأة والأعشى ، واستثنى النّابغة الّذي ظنّ أنّ مديحه للملوك كان سياسياً في سبيل قومه ، أضاف أنّ القصائد الجاهليّة الطويلة التي أُستهلت بمقدّمات طلليلة أو غزلية لم تتّصل أكثرها بالمدح ، فقد كانت فخراً وهجاءً ووصفاً وعتاباً

واعتذاراً ، وحتّى المديح الجاهليّ كان مديحاً للقبيلة وهو ضرب من الفخر ، وما كانت غاية الشّاعر أن يهزّ السّامعين للعطاء ، بل ما كانت غايته أن يُرضي السّامعين بقدر ما كان هدفه التّعبير عن خلجات نفسه وتصوير عواطفه ومشاعره . (د. الجبوريّ ، 1993 : 149) .

لا شكّ في أنّ هذا الرّأي يصدق على من مدح سادات قومه ، وعلى رأسهم زهير بن أبي سلمى ، لا على الّذين تجشّموا وعثاء السّفر من أجل الوصول إلى الملوك ومدحهم من أجل الكسب والعطاء ، لذا رأى أنّ كثيراً من المدح الجاهليّ لاسيما في أوائل هذا العصر لم يكن من أجل المكافأة ، بل من أجل الإشادة بالبطولات والمآثر ، والاعتزاز بها ، ممّا يؤكّد أنّ هذا المديح كان ضرباً من الفخر ، يعبّر عنه بكل صدق وموضوعيّة ، وأنّ قلّة من الشّعراء مدحوا من أجل المال ، بخاصّة في أوائل هذا العصر .

وفي صدر الإسلام ظهر تيار جديد في المديح ، وهو مدح الرّسول ﷺ ، برزت بعض معاني المديح الجديدة المنطلقة من قيم الدّين الإسلاميّ ، ومن قيم المجتمع الجاهليّ الّذي تطوّرت ونمّت ، واكتسبت النّموذجيّة ، ومُنحت الامتداد والعمق ؛ لأنّها موصولة بالكمال الإلهيّ المطلق .

ومن أوضح نماذجه لاميّة كعب بن زهير ، منها قوله :

مَهلاً هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ ال قُـرآنِ فيهـا مَواعيظٌ وَتَفصيـلُ
إِنَّ الرَّســـولَ لَسَيفٌ يُستَضـاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِن سُيـوفِ اللَّهِ مَسلولُ

(ابن زهير ، 1997 : 65 – 67 ، ويُنظر ديوان ابن ثابت ، 1994 : في مدح الرّسول ﷺ ، 20 – 21 ، 54 ، 55 ، 56) .

ولم يكن مديح الرّسول ﷺ مديحاً لشخصه الكريم وذاته بقدر ما هو مديح لمكانته ونبوّته وتوكيداً للرّسالة السّماوية الّتي بُعث لنشرها بين النّاس هادياً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى الله ﷻ وسراجاً منيراً ، لذا أُعجب ﷺ بقول عبد الله بن رواحة :

فَثَبَّتَ اللهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ تَثبيتَ موسى وَنصراً كَالَّذي نَصَروا

(ابن سلّام الجمحي ، 2001 : 175) .

لقد دبّج شعراء هذا العصر قصائد في مدح الرّسول ﷺ وخلفائه الرّاشدين ، وصحابته الغُرّ الميامين ، لمعت فيها المعاني الإسلاميّة حيث : التّقوى ، والوفاء ، والالتزام بالدّين الجديد وتعاليمه ، والجهاد في سبيل الله من أجل تحقيق أهداف سامية وغايات نبيلة ، وهذا يعني أنّهم اهتموا بالفضائل المعنوية أكثر من اهتمامهم بالصّفات الحسيّة ، ونكاد نجزم بأنّ هؤلاء مدحوا من أجل المدح ، لا من أجل الكسب والعطاء .

وفي عصر بني أميّة فُتحَ باب المديح على مصراعيه في ظل ظروف سياسيّة عاصفة ، وصراع مرير على السّلطة بين الأحزاب وعلى رأسها الحزب الحاكم (بنو أميّة) ، وواقع اجتماعي استثنائي ، حيث الثّراء وكثرة الأموال في خزائن الخلفاء والولاة ، الذين أفسحوا مجالسهم للشّعراء ، وأغدقوا عليهم بالعطاء ، الّذي حرّك نفوسهم ، وأفعم مشاعرهم ، وازداد شعر المديح في هذا العصر أهميّة ، واُستلت الألسنة الصّوارم ، وكَثُر الحوار والجدال بين شعراء الأحزاب ، ونُظمت القصائد القصار والطّوال ؛ لإحقاق حقّ وإبطال باطل ، ورفع أقوام وخفض آخرين بالحجّة والبراهين .

دافع كثير من الشّعراء على أحقيّة بني أميّة في الخلافة ، إذ إنّهم خلفاء الله في الأرض وأنّهم على درجة رفيعة من التّقوى والعدل والاستقامة ، وحسن إدارة الدّولة ، وقد استغلّوا مواهبهم الشّعريّة ، وقدراتهم الفنيّة والسّياسيّة ، والدّين لإثبات هذا الحقّ ، وقد أفاض د . شوقي ضيف في الحديث عن شعراء المديح في هذا العصر (يُنظر ، د . ضيف ، 1963 : 215 – 223) .

وقد وفد هؤلاء الشّعراء من كل صوب وحدب إلى الشّام يزاحمون شعراء الشّام ، كان عديّ بن الرّقاع حضريّاً دمشقيّاً كما قال عنه الأصفهانيّ (الأصفهانيّ ، 1992 : 9 / 307) ، ومن أهل البوادي والقرى وفد أبو صخر الهذليّ ، الّذي كان موالياً لبني مروان متعصّباً لهم ، وله في عبد الملك بن مروان مدائح (الأصفهانيّ ، 1992 : 21 / 94 – 95) ومن هؤلاء أعشى ربيعة ، وقد كان مروانيّ المذهب شديد التّعصب لبني أميّة ، وله مدح في عبد الملك بن مروان . (الأصفهانيّ ، 1992 : 6 / 154) .

وتدخل النّابغة الشّيبانيّ في السّياسة العليا لدولة بني أميّة (الأصفهانيّ ، 1992 : 7 / 106 وما بعدها) ، وفي مدحه عمر بن عبد العزيز بيّن أنّ الخلافة ابتدأت ببني أميّة وبهم انتهت يُنظر ، (شيخو ، بلا تاريخ : 155) .

ومن الفحول الّذين كانوا يفدون من البادية ويمدحون ويسهمون في السّياسة : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، والرّاعي النّميريّ ، والقُطاميّ .

قبل أن نتحدّث عن هؤلاء الفحول جدير بنا أن نذكر أنّ أحزاباً دينيّة لم تصطبغ بالسّياسة قد ظهرت في هذا العصر منها : المرجئة ، والجبريّة ، والمعتزلة أو القدريّة (د . الحوفي ، 1969 : 262 – 263) ، وقد آمن خلفاء بني أميّة بالجبرية ، الّذين ذهبوا إلى أن كلّ شيء بقضاء الله وقدره ، ولا مفرّ من هذا القضاء ، وفي ذلك تأييد ضمني لبني أميّة ، لأنّها توحي أنّ حكمهم مقدور ولا يصحّ للمسلمين أن يقاوموهم ، أو يعصوهم .

وصنّف جرير عبد الملك بن مروان بأنّه ركن الدّين ، والحفيظ على أحكام الدّين ، ولولاه ما اجتمع المسلمون في صلواتهم بالمسجد ، وأمين الله ، مبارك يهدي به الله عباده ، وأوامره ميمونة مطاعة ، وقد فضّل الله ﷻ بني أميّة على غيرهم من أهل البدع ، أي من الأحزاب المعارضة : (الخوارج ، والشّيعة ، والزّبيريين) ، إذ يقول :

لَـولا الخَليـفَـةُ وَالقُـرآنُ يقـرَؤهُ ... ما قامَ لِلنّاسِ أَحكامٌ وَلا جُمَعُ
أَنتَ الأَمينُ أَمينُ اللَّهِ لا سَرِفٌ ... فيمـا وَليتَ وَلا هَيّابَـةٌ وَرِعُ
أَنتَ المُبارَكُ يَهدي اللَّهُ شيعَتَهُ ... إِذا تَفَرَّقَـتِ الأَهـواءُ وَالشِّيَعُ
فَكُلُّ أَمرٍ عَلى يُمنٍ أَمَرتَ بِهِ ... فينـا مُطاعٌ وَمَهما قُلتَ مُستَمتَعُ
يـا آلَ مَروانَ إِنَّ اللَّـهَ فَضَّلَكُـم ... فَضلاً عَظيماً عَلى مَن دينُهُ البِدَعُ
(جرير ، بلا تاريخ : 278)

امتزج عنصر الدّعاية بالمديح الشّخصيّ في شعر سياسيّ ، يجمع بين الدّين والسّياسة من خلال رؤية قدريّة طواها طيّاً في بيت واحد في زحام حديثه عن زهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وتقواه وورعه وتديّنه (د. خليف ، 1989 : 281) ، إذ يقول :

أَنتَ المُبـارَكُ وَالمَهـدِيُّ سيرَتُهُ ... تَعصي الهَوى وَتَقومُ اللَّيلَ بِالسُّوَرِ
أَصبَحتَ لِلمِنبَرِ المَعمورِ مَجلِسُهُ ... زَيناً وَزَينَ قِبابِ المُلكِ وَالحُجَرِ
نالَ الخِلافَةَ إِذ كانَت لَهُ قَدَراً ... كَما أَتى رَبَّهُ موسى عَلى قَدَرِ
(جرير ، بلا تاريخ : 211) .

الخليفة لم ينل الولاية إلا بقضاء من الله لا بديل له كما قال الشّاعر نفسه في مدح عبد الملك بن مروان :

وفي هذا الإطار احتجّ الفرزدق لبني أميّة بأنهم الخلفاء الذين اختارهم الله ، فقال في مدحه لعبد الملك بن مروان :

فَالأَرضُ لِلَّهِ وَلّاها خَليفَتُهُ وَصاحِبُ اللَّهِ فيها غَيرُ مَغلوبِ
(الفرزدق ، 1997 : 49) .

وبالغ الفرزدق إذ زعم أنّه لو كان بعد النّبيّ ﷺ نبيّ ، لكان يزيد بن عبد الملك هو النّبي ، يقول :

وَلَو كانَ بَعدَ المُصطَفى مِن عِبادِهِ نَبِيٌّ لَهُم مِنهُم لِأَمرِ العَزائِمِ
لَكُنتَ الَّذي يَختارُهُ اللَّهُ بَعدَهُ لِحَمـلِ الأَمانـاتِ الثِّقـالِ العَظائِمِ
وَرِثتُم خَليلَ اللَّهِ كُلَّ خِزانَةً وَكُـلَّ كِتـابٍ بِالنُّبـوَّةِ قائِـمِ
وَحَبلُكَ حَبلُ اللَّهِ مَن يَعتَصِـم بِهِ إِذا نالَـهُ يَأخُذ بِهِ حَبلَ سالِمِ
(الفرزدق ، 1997 : 643 – 644)

وتبوّأ الأخطل النّصرانيّ مكانه متقدّمة عند خلفاء بني أميّة إذ لهج بأنّهم أحقّ المسلمين بالخلافة ، وأنّ الله اصطفاهم ، فهم خلفاؤه على الأرض ، وهم العصم الّذي استمّسك بها المسلمون فيجتمع أمرهم ، يقول في مدح ولدّي معاوية بن أبي سفيان :

تَمَّت جُدودُهُمُ وَاللَّهُ فَضَّلَهُم وَجَدُّ قَومٍ سِواهُم خامِلٌ نَكِدُ
وَيَومَ صِفّينَ وَالأَبصارُ خاشِعَةً أَمَدَّهُم إِذ دَعَوا مِن رَبِّهِم مَدَدُ
وَأَنتُـمُ أَهـلُ بَيتٍ لا يُوازِنُهُم بَيتٌ إِذا عُـدَّتِ الأَحسابُ وَالعَدَدُ
(الأخطل ، 1994 : 90 – 91) .

وقال في مدح عبد الملك بن مروان في قصيدة خفّ القطين :

إِلى اِمرِئٍ لا تُعَرّينا نَوافِلُـهُ أَظفَـرَهُ اللَّهُ فَليَهنِئ لَهُ الظَّفَرُ
الخائِضِ الغَمرَ وَالمَيمونِ طائِرُهُ خَليفَةِ اللَهِ يُستَسقى بِهِ المَطَرُ
وَالمُستَمِرُّ بِهِ أَمرُ الجَميعِ فَما يَعتَرُّهُ بَعدَ تَوكيدٍ لَـهُ غَرَرُ
أَعطاهُمُ اللَهُ جَدّاً يُنصَرونَ بِهِ لا جَدَّ إِلّا صَغيرٌ بَعدُ مُحتَقَرُ
(الأخطل ، 1994 : 103 – 105) .

لقد أصبحت النّزعة الدّينية محوراً لارتكاز الشّعراء ، وقاسماً مشتركاً بينهم ، لإثبات حقّ بني أميّة بالخلافة ، فهم يلتقون في جوانب محدودة محورها قداسة الخلافة ، وصبغها بالطّابع الدّينيّ من منطلق جبريّ لا يقبل جدلاً ، وكأنّهم يوجّهون لوماً عامّاً لمن يثور عليهم . يُنظر ، (د. خليف ، 1989 : 117) .

وقد امتزجت هذه الصّبغة بالسّياسة ، وكأنّهم يعتنون عناية كبيرة بمركز الخليفة وأهميته في إدارة شؤون الدّولة الّذي يرتكز عليه ميزان الحقّ والعدالة والأمان ، وقد أفاضوا في ذلك لتأكيد سلطات الخليفة ، وفي استنباط الحجج والدّعاوى ، الّتي يستند عليها حقّه في ولاية الخلافة ، ويكاد القارئ يتعجّب من جهود هؤلاء الشّعراء في هذا السّبيل ، أموجهة هي لإقناع الممدوح أم لإقناع رعاياه ؟ والواقع أنّهم كانّوا على وعي تام بالدّعوة السّياسية الّتي كان عليهم نشرها ، ومن ثم تحوّر فن المديح التّقليدي الّذي كان يبرز فضائل المرء وخصاله الشّخصيّة ؛ ليصبح شعراً سياسيّاً يمتزج فيه عنصر الدّعاية بالمدح الشّخصيّ (د . قاسم ، 1972 : 161 – 162) .

وكأنّ هؤلاء الشّعراء يسهمون في سياسة الدّولة إسهاماً فعّالاً بمباركة من الخلفاء والحكام والولاة ، الّذين طاب لهم هذا المديح ، وأصبحوا على قناعة تامّة بأنّهم خلفاء الله في الأرض ، وأنّهم أحقّ من غيرهم ، بل غيرهم في ضلال مبين ، لذا أغدقوا على الشّعراء الّذين تجشّموا وعثاء السّفر من أجل العطاء ، بل إنّ كثيراً منهم كان يطلب العطاء صراحة ، دفاعاً عن فكرته الّتي

آمن بها ، وهي فكرة تعكس في وضوح إطار السّياسة الأموية العامّة ، وتبرز أهمية الخليفة ، ويظهر فيها الصّدق الفنّي ، والصدق المذهبيّ.

وذهب الرّبيعيّ إلى أنّ شعرهم قد يبدو رائعاً فنّاً ، ولكن العقيدة لا تشعّ في كثير منه بوصفه فنّاً ، وهم معذورون في ذلك ، لأنّ الدّولة الأمويّة لم تَقُم على أساس من العقيدة ، بل قامت على أساس ماديّ ، ومن ثمّ اتّسم شعر المدح بالصّدق الفنيّ أكثر ما اتّسم بصدق الفكرة والعقيدة (يُنظر ، الرّبيعيّ ، 2001 : 83) ، كيف لا ، والفرزدق شيعيّ يؤمن إيماناً راسخاً بأحقيّة آل البيت بالخلافة ، ومدحه لبني أميّة طلباً للعطاء وتطبيقاً لمبدأ التّقية ، الّذي آمن به الشّيعة اتّقاء لغضب بني أميّة ، وبطشهم فمن يرفع رأسه آنذاك يُرفع بالسّيف ، والأخطل نصرانيّ لا يقبل أن تقوم الخلافة على أساس عقديّ دينيّ ، وقد كان من أقرب المقرّبين **إلى** خلفاء بني أميّة ، وتفوّق على جرير والفرزدق ، لذا رأى الشّايب أن " الشّعراء **الّذين** يمثّلون هذا الحزب الأموي أنّهم سايروا الملوك ، فكانوا على العموم نفعيين ، يمدحونهم طمعاً في العطاء أو خوفاً من العقاب ، وقلّما نجد من يمدحهم على أصل مذهبيّ " (الشّايب ، بلا تاريخ : 202).

لسنا بصدد الحديث عن الأساس الّذي قامت عليه الدّولة الأموية ، ولكن – باختصار شديد – لا نميل إلى ما ذهب إليه الرّبيعي ، أنّها لم تَقُم على أساس من العقيدة ، بغض النّظر عن تصرّفات بعض خلفائها .

من الطّبيعيّ أن يدلف البحث إلى مدح الأحزاب الأخرى المخاصمة للحزب الحاكم ، حيث الصّدق الانفعاليّ في مدح سياسيّ دينيّ مذهبيّ ، فالشّيعة اتّفقوا على أنّ الإمامة ليست من المصالح العامّة الّتي تفوّض إلى نظر الأمّة لانتخاب من تراه ، بل هي ركن الدّين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للرّسل – عليهم السّلام – إغفاله واهماله ولا تفويضه إلى الأمّة ، بل يجب عليهم تعيين الإمام لهم (الشهرستانيّ ، 1975 : 1 / 146) ، ورأوا أنّ الخلافة يجب أن تكون في آل البيت وهم أحقّ بها ، لذا اتّهموا بني أميّة أنّهم اغتصبوا هذا الحقّ ، وقد دافعوا عنه ، وامتزج مديحهم بالدّين والسّياسة والمذهبيّة ، وتحوّل إلى مدح مرتبط بالدّعاية والتّرويج لمبادئهم الّتي آمنوا بها ، فالإمام من قريش ، ويجب أن تتوافر فيه صفات تؤهّله للإمامة منها : العدل ، والشّجاعة ، والعلم ، والزّهد ، والتّقوى ، والورع ، يقول الكميت في قصيدة تجاوزت المئة بيت في مدح بني هاشم وآل بيت النّبوة :

بل هَوَايَ الّذي أُجِنُّ وأُبدي   لِبَنِي هَاشِمٍ فُرُوعِ الأنَامِ
رَاجِحِي الوَزنِ كَامِلِي العَدلِ في   السِّيرةِ طَبِيِّنَ بالأُمورِ الجِسَامِ
أُسدُ حَربٍ غُيوثُ جَدبٍ بَهَالِيـ   ـلُ مَقَاوِيلُ غَيرُ مَـا أفـدَامِ
فهم الآخذون من ثقـة الأمـر   بتقواهم وعُرى لا انفصام لهاَ
سَاسَةٌ لا كَمَن يَرَى رَعِيَةَ النّا   سِ سَوَاءً وَرعِيَـةَ الأَنعَامِ
لا كَعَبـدِ المَلِيكِ أو كَوَلِيـدٍ   أو سُلَيمَانَ بَعْدُ أو كَهِشَامِ
(الرّافعي ، بلا تاريخ : 22 – 26)

وفي ذلك تأكيد على حقّهم بالخلافة ، لذا تحوّل مديحهم إلى ضرب من الصّدق الانفعاليّ ، يقول أبو الأسود الدّؤليّ :

أُحِبُّ مُحَمَّداً حُبّاً شَديداً   وَعَبّاسـاً وَحَمزَةَ وَالوصِيّـا
بَنـو عَـمّ النَبِيّ وَأَقرَبـوهُ   أَحَبُّ الناسِ كُلِّهِمُ إِلَيّا
أُحِبُّهُـمُ لِحُـبِّ اللَـهِ حَتّـى   أَجيءَ إِذا بُعِثتُ عَلى هَوِيّا
(أبوالأسود الدّؤليّ ، 1998 : 119 – 120) .

مدح سياسيّ مشوب بعاطفة دينيّة عامّة ، وعاطفة شخصيّة يعكس من خلالها ذاته ، مدح فيه مقوّمات اعتمد عليها الشّاعر في تصوير دوافعه إلى حبّهم ، ورفض لوم من يلومه على هذا الحبّ الجارف لهم ، وكأنّ هذه الذّاتيّة تقوده إلى تحويل الموقف إلى ضرب من الجدل والحجاج المنطقيّ – كما فعل شعراء بني أميّة دفاعاً عن حقّهم في الخلافة – ، ومن الحقّ أنّه يبدو بصدّد تصوير عواطف ومشاعر إنسانيّة ، يسيطر عليها المنطق ويتحكّم فيها ، وتغلب عليه الرّغبة في تحديد ملامحها ومبرراتها فيعرضها بين مقدّمات ونتائج ، وأدلّة وحجج وبراهين ، تدعم موقفه ، وتؤكّد صدق مشاعره . يُنظر ، (د. خليف 1989 : 140) .

من هذا المنطلق اتّسعت دائرة المفاضلات عندهم ، فصدرت أحكامهم موزّعة بين النّقيضين : صاحب الحقّ السّليب والمغتصِب ، والظالم والمظلوم ، وقد عرض أيمن بن خريم بن فاتك ضرباً من هذه المقارنة ، مصوّراً سلوك الشّيعة على لغة المادح (يُنظر ، أبو هلال العسكريّ ،1994 : 1 / 28 ، وهاشميات الكميت ، بلا تاريخ : 73 – 74) .

والخوارج الّذين كانوا رهباناً في اللّيل ، وفرساناً في النّهار ، غير أنّهم كفّروا غيرهم من المسلمين ، واستباحوا دماءهم ، أرادوا الجنّة ولكنّهم أخطأوا طريقها ، وقد برّأوا أنفسهم من شبهة المطالب السّياسيّة والطّموح الدّنيويّ إلى أمر الحكم ووجاهة الخلافة ، فكان الموقف الدّيني لهم أساساً لا يتجاوزه شعراؤهم ، ورأوا أنّ الخلافة حقّ لكلّ مسلم كفء عادل زاهد ، فلا يُشترط أن يكون الخليفة من قريش ، وليس لعربيّ دون أعجميّ . (الشّهرستانيّ ، 1975 : 1 / 107 ، و ابن الجوزيّ ، ، بلا تاريخ : 90) ، والخليفة ينتخبه المسلمون انتخاباً حرّاً ، ويُشترط فيه أن يكون أشدّ النّاس خشية لله وأكثرهم طاعة ، وأقواهم استمساكاً واتّباعاً لأحكامه .

ويبدو أنّ مدحهم – وربما رثاؤهم – أقرب إلى الفخر منه إلى المدح ، يقول الطّرماح :

لِلّهِ دَرُّ الشُّـراةِ إِنَّهُـمُ إذا الكَرى مالَ بِالطُّلى أَرِقوا
يُرَجِّعونَ الحَنينَ آونَـةً وَإِن عَلا ساعَةً بِهِم شَهَقوا
خَوفاً تَبينُ القُلوبُ واجِفَةً تَكادُ عَنها الصُّدورُ تَنفَلِقُ

(د . عباس ، 1974 : 238 – 239 ، ويُنظر ، 54 ، و56 – 57) ، وهم أهل تقوى وورع ، كما ذكر سميرة بن الجعد :

فَأَقبَلتُ نَحوَ اللهِ بِاللهِ واثِقاً وَما كُربَتي غَيرُ الإِلهِ بِفارِجِ

(د . عباس ، 1974 : 123 ، و 56 – 57) .

وهم يبيعون الله ﷻ نفوسهم للفوز بجنّات عدن تجري من تحتها الأنهار ، يقول قطري بن الفجاءة موضّحاً المنهج الّذي ساروا عليه ، وطبقوّه قولاً وفعلاً :

رَأَيتُ فِتيَةً باعوا الإِلهَ نُفوسَهُم بِجَنّاتِ عَدنٍ عِندَهُ وَنَعيمِ

(د . عباس ، 1974 : 107) .

وقد أضحى الموت عندهم أشهى إلى قلوبهم من العسل ، وفي ذلك تأكيد على أنّهم لا يسعون إلى مطلب دنيويّ ، فهم حريصون إلى الانتقال من دار البوار إلى دار القرار في جنات ونهر .

واتّخذ زعيم حزب عبد الله بن الزّبير وقائع كربلاء وسيلة لاستجماع مشاعر المسلمين حوله ، والانفراد بالخلافة دون بني أميّة ، وقد أضفى عليه عبد قيس بن الرّقيات ملامح دينيّة ما أغضب عبد الملك ، حيث يقول في قصيدة طويلة بلغت ستين بيتاً .

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِن اللَّـ ـه تَجَلَّت عن وَجْهِهِ الظَّلْماءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْس فِيـه جَبَرُوتٌ ، كَلاَّ ولا كِبْرِياءُ
يَتَّقِي اللهَ في الأُمُورِ ، وقَدْ أَفـ ـلَحَ مَن كانَ دِينَهُ الاتِّقاءُ
(ابن قيس الرّقيّات ، 1995 : 44 – 45)

ومضى يتغنّى بقريش غناءً سياسيّاً ، فجمع بين المدح ، والفخر ، والهجاء ، ودعا إلى توحيد القوم ، وتوحّد كلمتهم والتقاء موقفهم على سواء ، دون انقسام وراء الأهوال الّتي قد تُفسد عليهم قوّتهم ، وتُضعف موقفهم السّياسيّ ، فهو يخشى على قريش من أعدائها وهم كُثر يهدّدونها حقداً وحسداً على سلطانها وتميّزها الدّينيّ والسّياسيّ ، وقد عرض مبرّراته ودافعه من منطلق تميّزها الدّينيّ والسّياسيّ . (يُنظر ، ابن قيس الرّقيّات ، 1995 : 44 – 48) .

أما النّابغة الجعديّ ، فقد اتّخذ من سيرة ابن الزّبير امتداداً لمسيرة الرّاشدين الّتي مال عنها – حسب رأيه – خلفاء بني أميّة ، يقول :

حَكَيتَ لَنا الصِدّيـقَ لَمّـا وَلِيتَنـا وَعُثمـانَ وَالفـارُوقَ فارِتـاحَ مُعدِمُ
وَسَوَّيتَ بينَ النَّاسِ في الحَقِّ فَاستَوَوا فَعادَ صَباحاً حالِكُ اللّيـلِ مُظلِمُ أَتـاكَ
أَبُـو لَيلَى يَجُـوبُ بِـهِ الدُّجَـى دُجى اللّيلِ جَوّابُ الفَلاةِ عَثَمثَمُ
لِتَجبـرَ مِنـهُ جَانباً ذَعذَعَت بِـهِ صُـرُوفُ اللّيالي وَالزَّمـانُ المُصَمّمُ
(النّابغة الجعديّ ، 1998 : 151 – 152) .

يلج النّابغة من خلال هذا الشّعر السّياسيّ إلى الاحتجاج ، ويقتحم مناطق الإقناع بأحقيّة ممدوحه في الخلافة – كما فعل شعراء الشّيعة – وقد فنّد الأسباب الّتي دأب على تسجيلها والتّأكيد عليها ، والتّرويج لها بما يكفي لأن تتحوّل بين المسلمين إلى ذرائع كافية لأن يؤول إليه أمر الخلافة دون سواه ، فهو أحقّ بها من غيره ، وقد رأى النّعمان القاضي أنّ شعر الزّبيريين لم يسلك مسلك البرهنة ولا الاحتجاج للمذهب ، وإنّما اتّجه إلى دعمه بالتّأثير العاطفيّ ، ولم يلجأ إلى التّدليل العقلي ، لذا جاء شعرهم غنائيّاً بعيداً عن اصطناع أساليب الجدال والمنطق ؛ إذ لم تفسح العقيدة فيه مجالاً للرّأي ، فالدّعوة لحكم قريش وجدارتها بالسّلطان وتميّزها عن بقية العصبيّات لا تستند إلى أسانيد عقليّة ولا منطقيّة ، وإنّما تقوم على أسّس عرقيّة عاطفيّة ، فضلاً عن مجافاتها لروح العدل والمساواة الّتي جاء بها الإسلام ، لذا كان الاحتجاج لآل الزبير احتجاجاً عاطفيّاً خالصاً . يُنظر ، (القاضي ، بلا تاريخ : 507) .

فهذا مدح سياسيّ دينيّ مذهبيّ بدرجات متفاوتة ، تعلو فيه لغة الحوار والاحتجاج ، والانتصار للممدوح ، وتأكيد تفوّق حزبه ، وسلامة منهجه بنسب متفاوتة للإقناع بأحقيّته في الخلافة ، وطمعاً في العطايا والهبات ، والتقرّب من الخلفاء والولاة عند شعراء الحزب الحاكم ، وخوفاً من البطش والعقاب عند شعراء الشّيعة الّذين مدحوا خلفاء بني أميّة ، بينما تجرّد شعراء الأحزاب الأخرى من التّكسّب ، وقد كانت المعاني الدّينيّة قاسماً مشتركاً برز عند شعراء هذا العصر على اختلاف انتماءاتهم الحزبيّة ، فالفضيلة الدّينيّة محور مهم .

في ضوء ما تقدّم يمكن النّظر للمدح في شعر القطامي ، ومدى تأثره بالتّيارات السّياسية والحزبيّة ، والتّعصّب القبليّ ، والطّمع والتّكسّب .

هل دافع عن حزب بني أميّة ؟ هل دافع عن حزب بعينه ؟ هل كان مدحه قبليّاً يدافع فيه عن قبيلته وعصبيته ؟ أم أنّه مدح آخرين من غير قبيلته لظّروف استثنائية ؟ هل طوّر معاني المدح بما يتناسب والمعاني الدّينيّة أم ظلّت معانيه قديمة يُجاري فيها شعراء ما قبل الإسلام ؟.

الفصل الثّاني

معاني المدح

جاء في " نقد الشّعر " و " العمدة " أنّ الفضائل الّتي يمتدح لها أربع : العقل والشّجاعة والعدل والعفّة " يُنظر ،(ابن جعفر ، 2006 : 84 ، ابن رشيق ، 2006 : 2 / 162) ، فالقاصد لمدح الرّجال بهذه الأربع يكون مُصيبا و المادح بغيرها يكون مخطئاً ، وقد يكون للشّاعر أن يقصد منها البعض دون البعض ، فلا يُسمّى مخطئاً لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله ، ولكن يُسمّى مقصّراً في استعمال جميع المدح (يُنظر ، ابن جعفر ، 2006 : 84) .

وقد ذكر قدامة أنّ الشّعراء تفنّنوا في المديح بأن يصفوا خَلق الإنسان ويعدّدوا أنواع هذه الصّفات الأربع وأقسامها ، وأصناف تركيب بعضها مع بعض ، وما أقلّ من يشعر بأنّ ذلك داخل فيها الإفراد أو التّركيب إلا أهل الفهم ، ثمّ ذكر أقسام هذه الفضائل (ابن جعفر ، 2006 : 84)

وقد ذكر الشّعراء هذه الأقسام أو التّركيبات في أشعارهم ، وهي جامعة لمكارم الأخلاق ، وقد ذكر شاعرنا بعضاً منها .

لا يُبعِد اللهُ قوماً من عشيرَتنا ... لم يخذلونا على الجُلى ولا العادي
مَحميةً وحِفاظــاً إنّهــا شِيَمٌ ... كانت لقومي عاداتٍ من العادِ
(القُطاميّ ، 1960 : 89) .

فقد احتّل المدح جانباً كبيراً من شعر القُطاميّ ، فقد مدح شخصيات مشهورة في عصره ، وهم : زفر بن الحارث ، وأسماء بن خارجة ، والخليفة عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، وعبد الواحد بن الحارث بن الحكم ، وهمّام بن مطرّف ، وأيوب بن القِربّة .

وقد دارت معاني المدح عنده في : الشّجاعة ، وكرم اليد ، وكرم الأصل ، وسيادة الممدوح وكيف أنّه يقدّم الصّنائع لقومه ويصلح بين الأحياء ، وما إلى ذلك من معاني المدح .

كان من الطّبيعي أن يشيد في مدحه بالفضائل والقيم ومكارم الأخلاق الّتي تأصّلت أصلاً في نفوس العرب في عصر ما قبل الإسلام ، وقد أشاد بقومه الّذين آمنوا بهذه الشّيم والقيم في قوله :

لا يُبعِد اللهُ قوماً من عشيرَتنا ... لم يخذلونا على الجُلى ولا العادي
مَحميـّةً وحِفاظــاً إنّهــا شِيَمٌ ... كانت لقومي عاداتٍ من العادِ
(القُطاميّ ، 1960 : 89) .

وقد أشاد بما لدى الممدوحين من فضائل ومكارم وعلى رأسهم "زفر بن الحارث" الّذي فك أسره وأعطاه مئة من الإبل وردّ عليه ماله .

ومن نافلة القول أنّ هذه الظّاهرة المدحيّة لم تكن غريبة على المجتمع العربيّ آنذاك ، فقد نقل الجاحظ ما رُوي عن الخليفة الرّاشد عمر بن الخطّاب ﷺ قوله : " من خير صناعات العرب الأبيات الّتي يقدّمها الرّجل بين يديّ حاجة ، يستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللّئيم (الجاحظ ، 1985 : 2 / 310) .

ويقول د. شوقي ضيف : " تعوّد العرب منذ العصر الجاهليّ أن ينوّهوا في أشعارهم بأشرافهم وذوي النّباهة منهم وتحدّثوا عن خصالهم القبليّة من : الكرم ، والشّجاعة ، والحلم ، والوفاء ، وحماية الجار ، وكان لا يُعدّ السّيّد منهم كاملاً إلّا إذا تغنّى بنباهته ومناقبه غير شاعر ومضوا على هذه السّنة في الإسلام . (د. ضيف ، 1963 : 215) .

الشّجاعة :

الشّجاعة قيمة خُلقية متأصّلة في نفوس العرب في عصر ما قبل الإسلام ، وقد آمنوا بها طبعاً وسجيّة ، فالحياة الكريمة الجديرة بالبقاء حياة الفتوّة والشّجاعة والإقدام ، الدِّما تقطر على أقدامهم ، لا على أعقابهم ، المنيّة عندهم لا الدّنيّة ، وقد مضى الشّعراء في صدر الإسلام يلهجون بهذه القيمة ، مستبشرين بفتح من الله ونصر قريب في معارك البطولة والجّهاد ، فقد تطوّرت هذه القيمة في ظلّ الدّين الإسلامي الّذي أقرّ الجّهاد فرض عين على كلّ مسلم ومسلمة إذا أُستبيحت ديار المسلمين ، ووصلت إلى قمّة النّضج والكمال ، غير أنّ كثيراً من شعراء بني أميّة لم يترجموا ذلك شعراً ، ومضوا يقلّدون الأقدمين ، والقُطاميّ واحد من هؤلاء .

كان على رأس شخصياته الّتي اختارها "أبو هذيل زفر بن الحارث" ، الّذي " كان كبير قيس في زمانه ، وفي الطّبقة الأولى من التّابعين من أهل الجزيرة ، وكان من الأمراء ، سمع عائشة ومعاوية ، وكان في وقعة الجمل مع عائشة ، وشهد وقعة صفّين مع معاوية أميراً على قنسرين ، وشهد وقعة مرج راهط مع الضّحاك بن قيس ، فلما قُتِل الضّحاك هرب إلى قرقيسيا ، ولم يزل متحصّناً فيها حتى مات في خلافة عبد الملك بن مروان " . (البغداديّ ، 1997 :2 / 372 ، ويُنظر، (ابن الأثير ، 1987 : 4 / 5) ، وكان شاعراً ، وقد عبّر عن إخلاصه لابن الزّبير (يُنظر ، أبو تمام ، 1998 : 117) ، وكان شعره يمثّل الحرب والحماسة والعصبيّة ، ويمثّل الرّأس الكبير المدبّر من جهة أخرى ، فهو حريص على الوشائج والصّلات ، وهو لا يرى مانعاً من أن يفرّ لينحاز إلى ركن حصين يعاود منه القتال ، ولقد كان كريماً كما قال أبو الفرج ، مجمعاً لا يحب الفرقة (الأصفهاني ، 1992 : 20 / 127) وكان منصفاً ، فقد شهد لتغلب أنّهم كانوا على الموت أصبر منهم (يُنظر ، المرزوقيّ ، 2002 : 1 / 155) .

اتّصل القُطاميّ التّغلبي "بزفر" السّيد الأمير القيسيّ قبل وقوعه في الأسر وأثنى عليه طلباً للعطاء ، يقول مشيداً بخبرته الطّويلة في الحروب ودوره البارز حاثّاً ناقته على الإسراع :

يا ناقُ خُبّي خَبباً زوَرّا ... وقلبِي منسَمــكِ المُغبـرَا
إذ سَوفَ تَلقَينَ جَواداً حُـرّا ... سَيّـدَ قيسٍ "زُفَـرَ" الأغـرّا
قـد نَفَـعَ اللهُ بـه وضَـرّا ... وكـان في الحَربِ شِهاباً مُرّا

(القُطاميّ ، 1960 : 120 – 121) .

كيف لا ، وقد خاض حروباً كثيرة ، وكان شهاباً ثاقباً وخبيراً حربيّاً يخوض المعارك بكل ثقة واقتدار وحكمة .

وقد استغل القُطاميّ ذلك لطلب العطاء من هذا الجواد الحرّ ، ليكشف لنا عن منهجه في المدح .

وثمة قاسم مشترك بينهما يكشف عن منهج القُطاميّ في مدحه لزفر ، فكلاهما حريص على الوحدة وائتلاف الشّمل والوشائج والصّلات ، كما أنّ "زفر" فكّ أسر القُطاميّ في حرب قيس وتغلب ، وردّ إليه ماله ، فكان من واجب القُطاميّ أن يدبّج قصائد مدح يعترف فيها أنّه قدّم إليه جميلاً لا يُنسى ، وأسدى إليه يداً تكافأ ، وهو يحسّ إحساساً كاملاً أثّر في فلسفته للمدح وفاءً واعترافاً بالفضل ، وإشادة بالممدوح الّذي يستحق المدح ، كيف لا وقد توافرت فيه معاني المدح ،

ومنها الشّجاعة ، ترجمها شعراً خالداً بنبض بالصّدق والواقعيّة ، فقد مدحه في قصيدة بلغت ستةً وستين بيتاً ، بيّن فيها أنّ قومهما خصوم ، لا يوجد بيهم سوى الطّعن والضّرب ، ومع ذلك أثنى عليه ؛ لأنّه ردّ إليه حياته وقد كان على شفا حفرة من الهلاك ، فهو يجزي الإحسان بالإحسان ، ولا يرُدّ المروءة شتماً ، أو الجميل نكراناً ، وذلك قمّة الاعتراف بالفضل ، وكأنّه يشيد بشجاعته المعنويّة ، وقوّة شخصيته السّياديّة في اتّخاذ القرار، يقول :

مَن مُبلِغٌ "زُفَرَ" القيسيّ مِدحَتَهُ ... عن القُطاميّ قولاً غَيرَ أفنادِ
إنّي وإن كانَ قَومي ليس بينهم ... وبين قومِك إلّا ضَربَةُ الهادي
مُثنٍ عليك بما استبقيت مَعرِفَتي ... وقد تعرّضَ مني مقتَلٌ بادِ
فَلَن أُثيبَك بالنّعماءِ مَشتَمَةً ... ولَن أكافيءَ إصلاحاً بإفسَادِ
وإن هَجَوتُك ما تمّت مُكارَمتي ... وإن مَدَحتُ فقد أحسنتَ اصفادي
وما نَسيتُ مقامَ الوردِ تجعلُه ... بيني وبينَ حفيفِ الغابةِ الغادي
أيامَ قومي مَكاني مَنصِبٌ لَهم ... ولا يظنونَ إلّا أنّني رادِ
ولا كَرَدّكَ مالي بَعدَما كَرُبَت ... تُبدي الشّماتةَ أعدائي وحُسّادي
فإن قدرتَ على شيءٍ جُزيتَ به ... واللهُ يَجعَلُ أقواماً بِمِرصادِ

(القُطاميّ ، 1960 : 84 – 85 – 87) .

وأثنى على دوره البارز في الحرب ، ووصفه بأنّه شهاب مرّ ، وعلى وفائه ومحافظته على العهد إذ قال :

ذاك الّذي بايعَ ثم بَرّا ... ونقضَ الآباءَ واستَمَرّا
قد نَفَعَ اللهُ به وضرّا ... وكان في الحَربِ شِهاباً مُرّا

(القُطاميّ ، 1960 : 121 – 122) .

والوفاء قيمة خُلقية تصبّ في معين الشّجاعة وقوّة الشّخصيّة الّتي يتحلّى بها الممدوح .

وأثنى على شجاعته وإقدامه وعلى صبره وثباته في الميدان ، إذ يُجحم القوم ، وأشاد بفضله وولديه في صون حرمته وحقن دمه ، بعد أن بلغ من الجهد ما بلغ ، واشتجرت الرّماح ، وضاقت الأرض على تغلب ، فدعت أعوانها ، يقول :

يا "زُفَرُ بنُ الحارثِ" بنِ الأكرمِ ... قد كنتَ في الحربِ كريمَ المَقدمِ
إذ أحجمَ القومُ ولمّا تحجِمِ ... إنّك وابنَيكَ وصَلتُم مَحرَمي
بعدَ العوالي بعدَ ما ذبَّ فمي ... وحَقَنَ اللهُ بأيديكم دَمي
والرّمحُ يَهتَزُّ اهتزازَ المحجمِ ... من بعد ما اختلَّ السّنانُ مِعصَمي

(القُطاميّ ، 1960 : 122) .

وهو بذلك يجاري الأقدمين بقدر ، اعترافاً بالفضل وإشادة بقوّة الممدوح وشجاعته وثباته في الميدان ، ولم يتطرّق إلى معاني الجّهاد والاستشهاد.

وكذلك فعل في مدحه أهم شخصيّة في ممدوحيه ، كان لها مكانة كبيرة في عصره ، عبد الملك بن مروان ، الّذي شاعت شهرته بصفته رجل سياسة من ناحية ، ومحبّاً للشّعر من ناحية أخرى في قصيدة بلغت ثمانية وتسعين بيتاً ، مشيداً بشجاعته :

أميرُ المؤمنين هدىً ونورٌ ... كما جلّى دجى الظّلمِ النّهارُ
قريعُ بني أميّة من قريشٍ ... همُ السّرُ المهذّبُ والنّضارُ

(القُطاميّ ، 1960 : 148) .

وقد دار هذا المدح حول معاني الدّين والسّياسة ، فهو يصفه بالهدى والنّور والضّياء والتّهذيب ، مستعملاً ألفاظاً سياسيّة وأخرى دينية ، فقد ذكر الخلافة والإمامة .

وفي مدحه "همّام بن مطرّف" الفارس المغوار سيّد تغلب في الإسلام ، ذكر كلمة الجّهاد على استحياء ، وقد أشاد بشجاعته ومداومته للحرب ، وبأنّه اختار حياة النّعيم واللّذائذ الدّنيوية ، وأن خيله ملجمة مستعدّة لخوض غمار المعارك ، يقول في قصيدة بلغت ثلاثين بيتاً :

تَذكرَّتُ هَمّاماً وذكَّرَني بـه ... زَمانٌ كأحناءِ الرّحالةِ آزِمُ
بأبيضَ ما ينفَكُّ عاقدَ رايـةٍ ... لمردٍ على جردٍ لَهُنَّ هماهِمُ
وَخُيِّرَ فاختارَ الجّهادَ وقد يُرى ... لديـهِ نساءٌ مرشقـاتٌ نواعِـمُ
لإفراسِه يَوماً على الدَّربِ غـارَةٌ ... تصلصِـلُ في أشداقِهنَّ الشَّكـائِمُ
(القُطاميّ ، 1960 : 130 – 131) .

معانٍ تقليدية من الموروث القديم توّجت بمعاني حبّ الجهاد ، والزّهد في ملذات الدّنيا الفانية ، معانٍ صادقة تستحق الوقوف عليها ، لم يحظ بها أيّ ممدوح غيره ، فالممدوح فارس مغوار، مجاهد محبّ للفروسيّة .

وقد دار المدح في هذه الشّخصيّة حول معاني الفروسيّة والبطولة والحرب منصفة بأنّه كان مجاهداً ، محبّاً للفروسية رغم ما لديه من الخبرات الدّالة على التّرف الشّديد ، وفي ذلك تأكيد على تميّز هذه الشّخصية في حبّها للجّهاد مع أنّ المعاني لم ترقَ إلى المستوى المطلوب .

حاول القُطاميّ أن يرفع من شأن ممدوحه "زفر" من خلال مدحه بشجاعة قومه ، فهم صُبُر عند اللّقاء ، يبارون الرّيح يوم الرّوع زرافات ووحداناً ، يقارعون خصومهم في عقر دارهم ، دماؤهم تسيل على أقدامهم لا على أعقابهم ، سيوفهم دائماً مسلولة ، وذلك قمة الشّجاعة والإقدام ، يقول :

الضّاربينَ عُميـراً في بيــوتِهِـمُ ... بالتلّ يومَ عُميرٌ ظالِمٌ عادِ
ثابت له عُصَبٌ من مالِكٍ رُجُحٌ ... عند اللّقاءِ مساريعُ إلى النّادي
ليست تُجَـرَّحُ فُـرّاراً ظهـورُهـم ... وفي النّحورِ كُلومٌ ذاتُ أبلادِ
لا يَغمُدونَ لهم سَيفاً وقد عَلِمـوا ... إن لا يَكُن لهـم أيـامُ أغمـادِ
(القُطاميّ ، 1960 : 88 – 98) .

وكأنّه يشيد بشجاعة قوم شاعر في عصر ما قبل الإسلام ، إذ لم يُشر إلى أي معنى من معاني الجّهاد ، والصّبر، والرّباط ، والثّبات ، والتّنفير من الفرار يوم الزّحف .

ويدلف إلى نقطة مهمّة تكشف النّقاب عن منهجه ، فقد كان نفسه محور الحديث مع ممدوحه ، لا مجرّد مادح يطلب المال فقط ، فهو يمدح نفسه وقومه أحياناً ، بالإضافة إلى مدحه للممدوح ، وهو شامخ الأنف ، معترفاً بهذا الجميل الّذي أسداه إليه ، فقد ذكر في قصيدة عينيّة ، مدح فيها "زفر" انسابت في فضاء تعبيريّ بلغ واحداً وسبعين بيتاً ، أنّ قومه على درجة فائقة من القوّة والشّجاعة ، والخبرة الطّويلة في القتال ، والمداومة عليه ، سيوفهم دائماً مسلولة ، يبلون بلاءً حسناً عندما يلتقي الجمعان ، ويشتد الضّرب والطّعان ، ويُترك الكُماة منجدلين ، لذا كرهت القبائل نزالهم ، يقول :

وَيَومَ تلاقَتِ الفِئتانِ ضَربـاً ... وطَعناً يَبطَحُ البَطَلَ الشُّجاعا
ترى منه صُدورَ الخيـلِ زُوَرًا ... كـأنَّ بـه نُحـازاً أو دُكاعـا
وَظَلَّت تَعبِطُ الأيدي كلوماً ... تَمُجُّ عُروقُهـا عَلَقـاً متاعـا
قوارِشَ بالرّماحِ كأنَّ فيها ... شواطِنَ يُنتَزَعنَ بها انتزِاعا

كأنَّ النّـاسَ كلَّهـم لأُمٍّ ... ونحن لعِلَّةٍ عَلت ارتفاعا
فهم يتبيَّنون سنا سيوفٍ ... شَهرَنَاهُـنَّ أيـامـاً تبـاعـا
فكلُّ قبيلـةٍ نظروا إلينـا ... وَحَلّوا بيننا كَرِهوا الوقاعا
ثبتنـا ما مـن الحيّيـنِ إلّا ... يَظَـلُّ يـرى لكـوكبـهِ شعاعـا
(القُطاميّ ، 1960 : 33 – 34) .

يقول ذلك والأسى يمزّق قلبه ، بسبب الحرب الدّائرة بين قبيلته تغلب وقبيلة "زفر" ، وكأنّه من طرف خفي يشيد بقوّة قبيلة ممدوحه ، ويدعو صراحة لوقف نزيف الدّم بين القبيلتين ، اعترافاً منه بفضل ممدوحه .

وكنّا كالحريقِ أصابَ غاباً ... فيخبـو ساعـةً وَيَهُـبُّ ساعـا
لا تبعـد دمـاءُ ابنيّ نِزارٍ ... ولا تقرر عيونُك يا قُضاعـا
أمـورٌ لـو تدبّرهـا حليـمٌ ... إذَن لنهى وهيَّبَ ما استطاعا
(القُطاميّ ، 1960 : 34) .

ويمضي مشيداً بقبيلته تغلب أشد القبائل قوّة ومنعة في الحروب ، وقد ضرب أمثلة على ذلك أيام الجاهليّة ، يقول :

بتغلِبَ في الحروبِ ألَم يكونوا ... أشَـدَّ قبائـلِ العَـرَبِ امتناعا
زمانَ الجّاهليّةِ كُلُّ حيٍّ ... أبَرنـا من فصيلتِهِ لِماعا
أليسـوا بالأُلى قَسَطـوا قديمـاً ... على النُعمـانِ وابتَدروا السِّطاعا
وَهم وَرَدوا الكلابَ على تميمٍ ... بجيشٍ يَبلَـعُ النّـاسَ ابتلاعـا
فما جبنـوا ولكنّـا أُناسٌ ... نُقيمُ لَمن يُقارِعُنا القِراعا
فأمـا طـيّءٌ فإذا أتـاهـا ... نذائِرُ جيشنا ولَجوا القِلاعا
وأمّا الحيُّ من كَلبٍ فإنّا ... نُحلُّهـم السّواحِلَ والتِّلاعـا
(القُطاميّ ، 1960 : 35 – 36) .

وثيقة تاريخية يرفع الشّاعر رأسه من ثناياها ، وكأنّ قوّة قبيلته ، وشجاعتها ، وشهرتها قد اُختزلت في شخصه ، وكأنّه يمدح نفسه من خلال مدحه لقبيلته وذلك مدح يدخل في إطار خدمة العصبيّة القبليّة ، ثم يختم قصيدته الطّويلة بثلاثة أبيات يعترف فيها بالفضل الّذي أسداه إليه ممدوحه ، وقد أشاد القُطاميّ في قصيدة أخرى دالية مدح فيها شجاعة "زفر" وقومه . (يُنظر ، القُطاميّ ، 1960 : 89 – 90) .

ولم يتردّد في الإشادة بشجاعة قومه في مدحه "لأسماء بن خارجة" في نونيّة بلغت ثمانية وخمسين بيتاً ، و"أسماء" هذا يتصلّ نسبه بقيس عيلان ، وهو فزاريّ ، كوفيّ تابعيّ ، روى عن علي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه – ، وعبد الله بن مسعود ، رُوى عن مالك بن أسماء ، وعلى ربيعة الأسدي (يُنظر ، بدران ، 3 / 43 وما بعدها) .

يقول مادحاً وكأنّه يفتخر :

وحَسَبتِنا نَزَعُ الكتيبةَ غُدوَةً ... فيغيّفـون ونرجِعُ السَّرَعانـا
وَنحِـلُّ كُـلَّ حِمىً نُخبَّرُ أنَّـهُ ... مَنَح البروقَ وما يُحَلُّ حِمانا
وإذا تَسَعسَعَت الحروبُ فمالكٌ ... منها المطاعِنُ والأشدُّ سنانا
ونُطيع آمِرَنا ونجعلُ أمرَنـا ... لذوي جَلادتِنا وحَزمِ قِوانا
(القُطاميّ ، 1960 : 64) .

وفى مدحه لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقف مرفوع الهامة ، معتزّاً بنفسه وقبيلته ، مشيداً بشجاعة آبائه وأجداده وعشيرته الأقربين ، فهو محور الحديث مع الممدوح ، لا مجرّد مادح يطلب العطاء ، حتّى لو كان الممدوح أمير المؤمنين ، يقول :

أبونـا فـارسُ الفرسـانِ عَلقَت بكـفتـه الأعنّـةُ والغـوارُ
وأفضلُ مـا اقتنينا من سوامٍ ذكـورُ الخيـلِ والأسلُ الحرارُ
ورَثنـا الخيـلَ قد عَلِمَت مَعَـدٍّ ومـن عاداتهِنَّ لنا اختيارُ
تراثاً عن أبي صدقٍ أيادٍ وعِـيـلانٍ وخنـدفِهـا الكثـارُ
(القُطاميّ ، 1960 : 145) .

وهو مدح يصبّ في معين العصبيّة ، وفيه خدمة للقبلية بصورة لافتة تكشف عن فلسفة المدح عند شاعرنا ، فحبّه للقبيلة ، وتعصّبه لها لم يتضاءل أمام هيبة الخليفة ممّا يؤكّد قوّة إيمانه ، وتمسكه بهذه العقيدة السّلبيّة الّتي أطلت برأسها في عصر بني أميّة .

إنّه من قبيلة ورثت الشّجاعة وفنون القتال ، والضّرب والطّعان ، والثّبات في الميدان من الآباء والأجداد .

متى ترعش إلى الإلجامِ يوماً يَقُـم سوقُ الطعانِ لها تجارُ
ومعقلُنا السّيوفُ إذا أنخنا وقد طارَ القنازِعُ والشّرارُ
بضَربٍ تَبصُرُ العميـانُ منه وتعشى دونَه الحَدَقُ البِصارُ
وإسحقٌ أخونا قـد علمتُم علينا من مواسِمِه النّجارُ
نَهُزُّ المشرفيّةَ ثمّ نعـدوا وليس بنـا عن العـادي ازورارُ
(القُطاميّ ، 1960 : 149) .

إبداع في التّعبير عن شجاعة القوم ، وثباتهم في الميدان حين تزيغ الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وتطير النّفوس شعاعاً من هول المعارك ، فمعقلهم السّيوف إذا أناخوا وأقاموا إقامة طويلة ، بينما يُعرّد الرّعاديد الجبناء ، ويزداد الإبداع في تصوير الضّرب والطّعان ، ضرب شديد تبصر العميان منه ، ويُصاب بالعمى المبصرون من هوله وشدّته .

وعندما أشاد بشجاعة "همّام بن المطرّف" وحبّه للجّهاد ، وتركه ملذات الدّنيا ونعيمها الزّائل ، لم ينسَ قومه ، فأشاد بشجاعتهم وقتالهم بالرّماح العوالي إذ قال :

فأصبَحَ قومي قد تَفَقَّدَ منهُمُ رجالُ العوالي والخطيبُ المراجِمُ
(القُطاميّ ، 1960 : 131) .

وخلاصة القول أنّ القُطاميّ كشف عن منهجه في مدحه لشجاعة ممدوحه ، إذ سار على نهج الأقدمين ، ونهل من الموروث القديم ، غير أنّ بعض معانيه دارت حول الدّين ، والجهاد ، والسّياسة ، ولكن بقدر .

وقد أشاد بشجاعة ممدوحيه الحسيّة والمعنويّة ، وكذلك شجاعة قومهم ، واللّافت أنّ مدحه قبليّ ، فقد أشاد بشجاعة قومه ، فهو محور الحديث مع الممدوحين ، لا مجرّد مادح يطلب العطاء.

كرم اليد :

طالما مدح الشّعراء في عصر ما قبل الإسلام الكرم ، فقد تأصّلت هذه العادة في نفوسهم لدرجة أنّ الغني والفقير على حدّ سواء في الكرم ، فجهد المقلّ ، والمكثر في الغنى سيّان في الجود ، فالفقير الّذي يبذل كلّ ما يملك وهو في أمسّ الحاجة إليه ينتصر بكرمه على غريزتين

هما : حبّ البقاء ، وحبّ التّملّك ، وهو بذلك يبرهن على كرم أخلاقه ، ورفعة مكانته ، وقوّة عزيمته ؛ لأنّه يرقى بنفسه إلى درجات الكمال والمروءة (يُنظر ، الدّسوقي ، 1959 : 72 – 73) .

وقد عُدّ الجود عنواناً للفضيلة ، يقول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان :

أَخي ثِقَةٍ لا تُتلِفُ الخَمرُ مالَهُ وَلَكِنَّهُ قَد يُهلِكُ المالَ نائِلُه
تَراهُ إِذا ما جِئتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعطيهِ الَّذي أَنتَ سائِلُه
(ابن أبي سلمى ، 1995 : 68) .

والكرم قيمة خُلقيّة اجتماعية بها تُوطّد العلاقة بين السّيّد والمسود على أساس المشاركة الإنسانية ، وإحساس الفرد بالآخر من خلال إكرامه وإسعاده ، لذا سعى السّادة الأجواد إلى إذابة الفوارق الاجتماعية آنذاك في مدّ يدّ العون للأرامل والمعوزين ؛ لرفع معاناتهم وإدخال السّرور في أنفسهم ، وكان من الطّبيعي أن تتطوّر هذه المفاهيم في ظلّ المنهج الرّبانيّ الجديد ، الّذي يدعو إلى مدّ يدّ المساعدة للأيتام ذوي المقربة ، والمساكين ذوي المتربة ، وإعطاء السّائل والمحروم حقّه المعلوم ، وقد أثنى شعراء صدر الإسلام على الكرماء ، قال عمارة بن عقبة بن أبي معيط في حقّ عثمان بن عفان :

وثِمَالُ الأيتامِ في الجدْبِ والأزْلِ إذا هبَّت الرِّياحُ الشَّمالُ
الوَصُولُ القُرْبَى إذا قَحَطَ القَطْرُ قَديماً وعَــزّتِ الأَشْـوالُ
(المرزباني ، 2005 : 106 – 107) .

وأثنى شعراء بني أميّة على الكرماء ، الّذين يقومون بواجبات الضّيافة على أكمل وجه ، يقول الشّماخ بن ضرار يمدح عبد الله بن جعفر :

إِنَّكَ يا بنَ جَعفَرٍ نِعمَ الفَتَى وَنِعـمَ مَأوى طَـارِقٍ إِذا أَتَى
وَرُبَّ ضَيفٍ طَرَقَ الحَيَّ سَرَى صَادَفَ زاداً وَحَديثاً ما اِشتَهى
(العسقلاني ، 2012 : 854) .

وهذا يعني أن مدحهم لم يتعدّ حدود مدح العرب الكرماء في عصر ما قبل الإسلام ، فقد ظلّ الشّعراء يمدحون الملوك والأمراء والكرماء بما كان يُمدح به السّيّد العربيّ الكريم في البادية ، كالقِرى في صورته الماديّة المألوفة من نحر الإبل ، ورفع القدور ، وإشعال النّار ، وهذا يدل على السّير على منوال القدماء ، والاحتذاء بهم دون بذل جهد الابتكار والتّجديد لمواكبته العصر الجديد (يُنظر ، د. القط ، 1979 : 329) .

كان من واجب شاعرنا أن يُثني على السّيّد الأمير الكريم "زفر بن الحارث" ، يقول مادحاً بعد أن وصف ناقته ، طالباً الغوث من المحل :

تحمِّلُ من قيسٍ فتىً وَضّاحا سمحُ اليدينِ بالنّدى نفّاحا
كأنّ في الموكبِ حين لاحا بــدراً يزيدُ النّظرَ انفساحا
أفلحَ ســاقٍ بيديــك امتاحــا وقرّ عيناً ورَجا الرّباحا
ألا ترى ما غشيَ الأركاحا وغشيَ الخابـــورَ والأملاحا
يُصفِّــقــون بالأكــفِ الرّاحــا لم يدع الثلجُ بها وجاحا
باللهِ ترجو وبك النّجاحا
(القُطاميّ ، 1960 : 173 – 174) .

رجّح صاحب الدّيوان أن تكون هذه الأرجوزة في مدح "زفر" الفتى القيسي ، وليس هذا بالدّليل القاطع علي أنّها فيه ، ولكن كثرة مدائحه له ، وذكره : الخابور ، والأركاح ، وهي منازل قريبة من منازل قيس يُرجّح أنّه يستنجد بزفر الأمير القريب ، ويطلب منه الغوث من المحل (القُطاميّ ، 2001 : 508) .

ولا عجب في ذلك ، فهو يسير على منوال معاصريه ، الّذين مدحوا السّادة من أجل العطاء ، بلغة واضحة ومعان تقليدية بسيطة ، كرّرها في أرجوزة ثابتة ، منّى فيها ناقته بملاقاة فتى جواد ، يقول :

يـا ناقُ خُبّي خَبباً زَوَرّا — وقلبّـي منسَمـكِ المُغبَرَا
وعارضي اللّيلَ إذا ما اخضَرّا — أَخبرَكِ البـارحُ حينَ مَـرَّا
إذ سَـوفَ تَلقَينَ جَواداً حُـرّا — سَيّدَ قيسٍ زُفَـرَ الأغـرّا
(القُطاميّ ، 1960 : 120 ، والأصفهاني ، 1992 : 24 / 45) .

أغلب الظّن أنّ هاتين الأرجوزتين قيلتا قبل أن يُؤسر القُطاميّ ، واللّافت للانتباه أنّه يُخاطب النّاقة لا الممدوح ، بلغة العذوبة والتّحضّر في أرجوزة لم تتجاوز ستة أبيات ، لا وقوف على الأطلال فيها وكأنّه يتناسى معاناة الرّحلة ، ليُحلّق في فضاء تفاؤلي رحب ، يقتضب التّوجّه إلى المورد العذب ، إلى الممدوح الكريم ؛ ليُحقّق الهدف والأمل بمستقبل أفضل .

وكان من الطّبيعي أن يُثني القُطاميّ على ممدوحه "زفر" ، الّذي أكرمه ، وفكّ أسره ، وأعاد إليه ماله ، وأعطاه مئة من الإبل ، وأعاد إليه توازنه ، فقد أفرد قصيدة طويلة انسابت في فضاء يبلغ ستة وستين بيتاً افتتحها بمفتاح السّعادة والإلهام ، مفتاح الغزل والحبّ ؛ ليحلّق في فضاء التّألق والإبداع والانسجام ، فضاء الحبّ والإخلاص ، الحبّ الصّادق ، حبّ حبيبته ، وحبّ ممدوحه ، ليمتزج الحبّ بالإخلاص والوفاء ، والاعتراف بالجميل ، في ظروف استثنائية ، وقد وجّه خطابه بصورة مباشرة إلى ممدوحه ، معترفاً بفضله ، وكأنه يشيد بكرمه ، الّذي أعاد إليه التّوازن والكرامة ، والبسمة والأمل ، لذا استحق الممدوح كلّ احترام وتقدير ، وانساب الشّعر فياضاً صادقاً ، مفعماً بالتّفاؤل والأمل ، يقول :

مَن مُبلغٌ "زُفَرَ" القيسيّ ، مِدحَتَهُ — عن القُطاميّ قولاً غَيرَ أفنادِ
إنّي وإن كانَ قَومي ليس بينهم — وبين قومِك إلّا ضَربَةُ الهادي
مُثنٍ عليك بما استبقيت مَعرِفَتي — وقد تعرّضَ منّي مقتَلٌ بادِ
فَلَنْ أُثيبَـك بالنَّعماءِ مَشتَمَـةً — ولَن أكافِىءَ إصلاحـاً بإفسَادِ
وإن هَجَوتُك مـا تمّت مُكارَمتي — وإن مَدَحتُ فقد أحسنتَ إصفادي
وما نَسيتُ مقـامَ الوردِ تجعلُـه — بيني وبينَ حفيفِ الغابةِ الغادي
ولا كَرَدَّكَ مالـي بَعدَمـا كَرُبَت — تُبدي الشّماتةَ أعدائي وحُسَّادي
فإن قدرتَ على شيءٍ جُزيتَ بـه — واللهُ يَجعَـلُ أقوامـاً بِمِرصـادِ
(القُطاميّ 1960 : 84 – 85 ، الأصفهانيّ 1992 : 84 / 46 – 47).

وثمّة رواية تذكر أنّ "زفر" حين سمع ذلك لم يرضَ وقال للقُطاميّ : " لا أقدرك الله على ذلك " (الأصفهانيّ ، 1992 : 24 / 47) .

وفي قصيدة أخرى طويلة انسابت في واحد وسبعين بيتاً ذكر " لزفر" أنّه أكرمه في شدّة يجحم فيها النّاس عن الإكرام فكيف يكفر بنعمته ، وقد وهبّ له الحياة بعد أن كانت مهدّدة ، ولم يكتف بذلك ، بل زاد هبة وعطاء ؟! ، يقول :

ومن يكُنِ استـلامَ إلى ثَويّ فقد أكرمتَ يا "زُفَرُ" المتاعا
أكُفرَاً بعد رَدِّ المَوتِ عنّي وبَعـدَ عَطائِـكَ المائةَ الرّتاعا
فلو بيدي سواك غَداةَ زَلّت بيَ القدمانِ لم أرجُ اطِّلاعا
إذَن لَهَلَكتُ لو كانت صغاراً من الأخـلاقِ تُبتَـــدَعُ ابتداعــا
(القُطاميّ ، 1960 : 37 ، الأصفهاني 1992 : 24 / 44) .

واعترف بفضل ممدوحه في قصيدة أخرى ، وكأنّه يُثني على كرمه ، يقول :

يا "زُفَرُ بنُ الحارثِ" ابنِ الأكرمِ قد كنتَ في الحربِ قديمَ المَقدمِ
قد حَقـنَ اللهَ بكفيْـكَ دمـي من بعد ما جَفَّ لساني وفمي
(القُطاميّ ، 1960 : 122 ، و الأصفهانيّ 1992 : 24 / 45) .

وقد استهل قصيدته العينيّة بخطاب "ضباعة بنت الحارث الكلابي" أخت "زفر" ، خطاباً مباشراً ، عبّر من خلاله عن حزته العميق ، وهمّه الدّفين ، لتباين حال قبيلتها قيس ، وقبيلته تغلب ، وللصّراع الدّمويّ المقيت بينهما ، صراع فيه طاعة للغواة ، وعصيان للتّدبّر والحلم والأناة ، وقد نهلت القصيدة من أشجان ذاته ، وأعماق فؤاده ، وعبّرت عن أزمة مزدوجة ، أزمة ذاته ، وأزمة القبيلتين ، ويبدو أنّه نجح في صهر معاناته ، وصولاً إلى هدف منشود ، هدف مزدوج ، يُثلج صدوراً متباينة وألباباً متصارعة يسعى أولو الألباب إليه ، وعلى رأسهم صاحب الشّأن الممدوح " زفر" ، فثمّة قاسم مشترك بين المادح والممدوح ، كلّ منهما مجمع ، لا يحبّ الفرقة ، حريص على جمع الشّمل والوئام ، وتزداد الأمور تعقيداً لدى المادح ، إذ وقع في الأسر ذليلاً مهاناً ، وأكرمه الممدوح الخصم ، إذن لابُدّ أن يُكرم الكريم ، ويرّد إليه الجميل ، شعراً فياضاً ، تتدفق من جنباته عاطفة صادقة ، وإخلاص ووفاء ، حبّ ومحبّة ، واعتراف بالجميل ، ودعوة صادقة لإخماد نار الألم والفرقة ، لتُشرق شمس الأمل .

وضرب على وتر حسّاس عندما أثنى على الكريم الماجد "أسماء بن خارجة" ، إذ إنّ الكرم هو الصّفة البارزة الّتي اعتمدت عليها شهرته ، فقد رُوي عنه أنّه قال : " لا أشاتم رجلاً ، ولا أردُّ سائلاً ، فإنّما هو كريم أسُدّ خَلَّتَهُ ، أو لئيم أشتري به عرضي منه " (المبرد ، 1997 : 3 / 320) ، لذا استحق مدحة تليق بشخصه في قصيدة نونيّة بلغت ثمانية وخمسين بيتاً ، جوّد فيها ، وجارى الأقدمين ، يقول :

فاخترتَ أسماءَ الجوادَ فلم تَخِب يَدُ راغِبٍ عَلِقَت أبــا حَسَّانا
وَترى الرِّفاق يوجّهونَ رِكَابهـم نحو العريضِ مَنادِحاً وخُوانا
يَلِجونَ من أبوابِ دَارَةِ ماجدٍ لَيست تَهـرُّ كلابُه الضّيفانا
نِعمَ الفتى عَمِلَت إليـه مَطيّتي لا نَشتكي جَهدَ السِّفارِ كِلانا
وتراه يَفخَرُ أَن تَحِلَّ بيوتُـه بمحلّةِ الزّمنِ القصير عِنانا
(القُطاميّ ، 1960 : 65 – 66) .

كان أسماء سيّداً في قومه إذا ألّمت بالقوم عظيمة من الأمور تراه شهماً جواداً يغيث الملهوف ، ويحسم عظائم الأمور ، إذا نزل إليه أحد في حاجة لا يتوانى حتى يقضيها له ، لذا كان القطامي يرحل إليه كثيراً ، ولا يجد في رحلته إليه مشقّة حتّى ناقته لا تشعر بتعب السّفر إليه من فرط ما تلاقيه عنده من خير وكرم . يُنظر ، (غريّب ، 1955 : 235) .

وثمّة دلائل على جوده وكرمه ، إذ إنّ كلابه جبانة تعوّدت على الضّيوف ، كما كانت كلاب الأكرمين في عصر ما قبل الإسلام ، وفي ذلك تأكيد على كرم الممدوح ، وكثرة ضيفانه ، وثمّة محاكاة بقدر لشعراء عصره ومن سبقوهم ، الّذين افتخروا بالكرم .

وقد استهل – كعادته – نونيته بالغزل وذكر المحبوبة والخمر ، ثم الكلاب مع الثور الوحشي ، وصولاً إلى الممدوح من أجل تحقيق هدف منشود ، وقد تآلفت الموضوعات في تيار شعوري واحد ، مشدود بعاطفة الحبّ ، حب الشّاعر لمحبوبته ، وحبّه لممدوحه واحترامه وتقديره ، إذ يستحق الثّناء ؛ لأنّه أهل له ، وقد أعطاه العناية الكافية ، وأزجى إليه سحائب جوده ، وقد أبدع إذ مدح الرّجل بما فيه مما يجعله سيّداً كبيراً فيتحرّك للعطاء ، يُلمس ذلك من خلال السّياق ، وأدوات التّعبير ، حيث جو تفاؤلي متمثّل في الحبّ الحقيقي للمحبوبة والرّغبة في الفوز بالجائزة .

لقد أدرك شاعرنا أنّ الأطلال كانت في الشّعر الجاهليّ رمزاً لشعور إنساني من صميم إحساس الإنسان بمأساته في الحياة ، ولم يكن عنده كغيره من شعراء عصره كما ذكر د. عبد القادر القط أنَّه مجرّد " لبنة " تملأ فراغاً في بناء قصيدته ، ولم تكن قصيدته خالية من الشّعور بعيدة عن الالتحام بسائر أجزاء المطلع التّقليديّ (يُنظر ، (د. القط ، 1987 : 314) .

نعم ، قد يكون ما ذهب إليه د. القط أنّه كغيره من الشّعراء – في الغالب – في بعض مدائحه أنّ همّه إرضاء نزعته الفنيّة إلى مجاراة الأقدمين ، وإرضاء الممدوح لتهويل ما لاقى في طريقه من أهوال (يُنظر ، د. القط ، 1987 : 318 – 319) ؛ ليفوز بعطاء جزل .

ولكنّه لم يستهل قصيدته الميمية في مدح أسماء بن خارجة بالوقوف على الأطلال ، والغزل وذِكر الأحبّة ، ولم يصف الرّحلة وآلامها ، ولعلّ ذلك يرجع إلى أنّه لا يجد في رحلته إليه مشقّة – كما ذكر آنفاً – لأنّه على ثقة تامّة بكرم ممدوحه ، فهو ليس بحاجة إلى مزج الأمل بالألم طمعاً في الحصول على جائزة مجزية ، فقد ولج إلى الموضوع مباشرة بقلب مفعم بالأمل ، فهو يثني على شخصية اجتماعية مشهورة بالكرم تستحق التّقدير والاحترام والثّناء ، يقول فيها :

وأنت الذي ترجـوكَ قيسٌ لفضلهِ ... وحتى لُكَيزٍ من وراءِ اللهـازِمِ
فَضُلت نزاراً يا ابن حُصنٍ تكرُّما ... وحزماً بِشدّاتِ الفحولِ الصَّلادِمُ
بِحَمـالِ أثقـالٍ إذا خَطَـرَت بـهِ ... فزارةُ في يومِ الثّأى المتفاقِمِ
(القُطاميّ ، 1960 : 70) .

إنه جواد كريم ، صاحب فضل عظيم ، فقد كان يتّحمل الدّيات عن فزارة وعن غيرها حقناً للدّماء ، وتأكيداً لصفة الكرم والجود ، لذا ترجو قيس وغيرها فضله وقد فُضّل على نزار أي قيس وتغلب .

أمّا الخليفة عبد الملك بن مروان ، فلم يحظَ بالثّناء على كرمه – وقد كان كريماً – إلا في بيت واحد في رائية بلغت ثمانية وتسعين بيتاً ، أُستهلت كالعادة بذكر الأحبّة ، والبكاء على الدّيار ، ووصف الرّحلة ومعاناتها ، وصولاً إلى مدح قريش والممدوح ، يقول :

وعبدُ المَلِكِ للفقراء طَعمٌ ... وحِرزٌ ليس معقلُه يُضارُ
(القُطاميّ ، 1960 : 148).

وفي ذلك دلالة على فتور الصّلة بينهما ، إذ لم يحظَ شاعرنا بمكانة عند الخليفة – كغيره من أقرانه – وإن سعى جاهداً للنّجعة من أجل الجائزة ، بيد أنّه لم يجوّد في مدحه للخليفة .

واللّافت للانتباه أنّه أثنى على كرم قوم ممدوحه " زفر" في داليته ، إذ قال :

والصِّيدُ آلُ نُفَيـلٍ خيرُ قومِهِـمُ ... عندَ الشّتاءِ إذا ما ضُنَّ بالزّادِ
نُبِّئتُ قَيساً على الحشَاك قد نَزلوا ... منا بحيٍّ على الأضيافِ حُشَادِ
(القُطاميّ ، 1960 : 86 – 88) .

ولكنّه لم يثنِ على كرم قومه ، كما فعل قبل ذلك في الثّناء على شجاعتهم وقوّتهم ومنعتهم.

و الخلاصة أن لا تجديد يُذكر في ثنائه على كرم ممدوحيه ، فقد سار على نهج الأقدمين ، ولم يُحاكِ شعراء عصره ، الّذين بالغوا في الكرم إلى حدّ الإسراف والمباهاة ، لا من أجل رفع المعاناة ، ولم يأتِ بألفاظ دينيّة توحي بالتّجديد ، وقد كان عنوانه في هذا الإطار الاعتراف بالجميل للممدوح السّيد الكريم ، بخاصّة في مدحه "لزفر" والفوز بالجائزة ، وثمّة تفاوت في تجويده وصدق عاطفته ، ومدى تفاعله مع الممدوح .

كرم الأصل :

عراقة الأصل ، والمجد والشّرف توأمان لا ينفصلان ، فالمجد ينبثق من أصل عريق ونسب شريف يتوارثه الآباء جيلاً بعد جيل من الآباء والأجداد .

والمجد هو المروءة والسّخاء ، والمجد هو الكرم والشّرف ، وقيل : " المجد : نبل الشّرف ، وقيل لا يكون إلّا بالآباء ، وقيل : المجد : كرم الآباء خاصّة ، وقيل : المجد: الأخذ من الشّرف والسّؤدد ما يكفي ". (ابن سيدة ، 1985 : 7 / 147).

طالما أثنى شعراء ما قبل الإسلام على عراقة الأصل ونبل الشّرف وحسن المنبت .

مدح زهير بن أبي سلمى – على سبيل المثال – غطفان وأشاد بحسبهم ومجدهم قائلاً :

سيروا إلى خَيرِ قَيسٍ كُلِّها حَسَباً وَمُنتَهى مَن يُرِيدُ المَجدَ أَو يَفِدُ
(ابن زهير ، 1995 : 49)

وكذلك فعل شعراء بني أميّة بخاصّة في مدحهم لخلفاء بني أميّة ، لإثبات أحقّيتهم في الخلافة وأنّهم أهل لها ، وأنّهم ينتمون إلى أرومة أصيلة . وشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السّماء .

يقول جرير في مدح الوليد بن عبد الملك :

إنَّ الوَلِيدَ هُوَ الإمامُ المُصطَفى بِالنَّصرِ هُزَّ لِواؤُهُ وَالمَغنَمِ
وَرِثَ الأَعِنَّةَ وَالأَسِنَّةَ وَانتَمى في بَيتِ مَكرُمَةٍ رَفيعِ السُلَّمِ
(جرير (بلا تاريخ) : 396 ، ويُنظر ، على سبيل المثال ، مدحه لهشام بن عبد الملك : 117 ، وعبد العزيز بن مروان : 171 ، ويُنظر ، الفرزدق ، (بلا تاريخ) ، مدحه للوليد ابن عبد الملك : 97 ، وعمر بن عبد العزيز : 204 ، 205 – 287) .

سار القُطاميّ على منوالهم في مدحه للسّادة الكرام ، فقد أثنى على شرف أصل ممدوحه " أسماء بن خارجة " ، وكريم فعاله في نونيّة بلغت ثمانية وخمسين بيتاً ، وساق أدلّة بشكل عام على شرف أصله ، وأكّد على أنّ آباءه أنجبوه وهم على ذكر حسن ، يقول :

وعليكِ "أسماءَ بنَ خارجةَ" الّذي عَلِمَ الفِعالَ ، وعَلَّمَ الفِتيانا
فستعلمينَ أصادِقٌ روّادُهُ عنه ، وأيُّ فتىً ، فتى غَطَفانا
قَرماً إذا ابتدرَ الرّجالُ عظيمةً بَدَرَت إليه يمينُهُ الأَيمانا
نِعمَ الفتى عَمِلَت إليه مَطيّتي لا نَشتكي جَهدَ السِّفارِ كِلانا
إنَّ الأبوَّةَ والدانِ تراهما مُتقابلَينِ قَساماً وهِجانا
فأبٌ يكونُ إلى القيامةِ مَجدُهُ وأبٌ يكونُ على بَنيهِ ضمانا

غَطَفان سيّدُهم أبوك وخيرُهم ولدوك حين تذكروا الإحسانا
(القُطاميّ ، 1960 : 64- 65) .

وأشاد بالأمجاد الّتي بناها جدّه "حصن" ، وبنسبه الرّفيع في ميمية بلغت أربعة عشر بيتاً ، إذ قال :

وإنّي لَمُهدٍ مِدحَـةً وَهَدِّيَـةً "لأ سماءَ" ذي الفَضلِ العظيم القُماقمِ
وما قائلٌ خيـراً ومثنٍ بنائِلٍ على آلِ بَدرِ بنِ مَعَدٍّ بنادِمِ
وَجَدُّكَ حُصنٌ قد بنى لك في العُلا كمـا كـان نُعمان بنى للعلاقمِ
أَغَرُّ إذا اصطَكَّ الجبـاهُ كأنّـه هِـلالٌ بـدا من مُسجفاتِ الغمائمِ
إذا نحن زُرنا بيتَهُ قال : مَرحَباً لِجـوا ثمّ لَم يَعرِض لنا بالسَّخائِمِ
أَلَم تَرَ أنّا قد كسَوناك حلةً نَمت بك ليست لِلِئَامِ الدَّمائِمِ
مُقَدّاةُ بنتُ الحصنِ أُمُّكَ فانتسِب إلى النَّسَب الرَّابي الرَّفيعِ الدَّعائمِ
وأمَّ بني بَدر فـلا تَنسيَنَّـهـا وبَدراً أبا تلك النُّجومِ الخَضارمِ
تَظَلُّ سَراةُ الحيّ قيسٌ تَعودُهُ وتغلبُ من معطي الخزامِ ووائِمِ
(القُطاميّ ، 1960 : 70 – 71) .

لم يخرج عن المعاني التّقليدية حيث : كرم الآباء ، وكرم الصّفات ، كرم أَصلِه ، فقد كان جدّه رجلاً عظيماً بنى له هذه الأمجاد، كما بنى نعمان مجداً للعلاقم ، وكرم أمّه وفضلها ، فضلاً عن أنّ الممدوح أمل لقيس كلّها .

اللّافت للانتباه أنّه لم يستهلّ مدحته بالغزل وذكر الأحبّة ، ليعيش في جو تفاؤلي مفعم بالأمل والسّعادة ، ولم يصف وعثاء الرّحلة وآلامها ، فلا مزج بين الأمل والألم ، إنّما ولوج إلى الموضوع مباشرة بقلب مفعم بالأمل ، بخاصّة أنّه يُثني على كرم أصل ماجد شريف معلّم مؤدّب ، كريم الأصل ، كريم اليد .

وفي رائية طويلة بلغت ثمانية وتسعين بيتاً ، أشاد بثبات أصل الخليفة عبد الملك بن مروان وأرومته ، إذ قال :

ونصرُ ذوي الأباعدِ منك رَيْثٌ وأحشـاءُ ابنِ عمّـكَ تُستطارُ
ومن يَنزَع أرومَتَـه لأخرى فذاك لثابتِ الأصلِ اعتقارُ
كما الزّيتونُ لا يَمّازُ نخلاً ولا الجبـارُ تبدلُـه الصّحارُ
أميـرُ المؤمنين هدىً ونـورٌ كما جلّى دجى الظّلمِ النّهارُ
قريعُ بني أميّةَ من قريشٍ همُ السَّرُ المهذّبُ والنّضارُ
وقد حَمَـلَ الخِلافَـةَ ثم حَلَّ بهـا عند " ابنِ مروانَ" القرارُ
(القُطاميّ ، 1960 : 147 – 148) .

فهو ينتمي إلى أصل كريم ثابت ، وحسب رفيع ، بني أميّة من قريش ، وكأنّ لسان حاله يؤكّد على أحقيتهم بالخلافة ، وهو بذلك يعزف على وتر حسّاس ، ويترنّم بنغمات تطرب الخليفة ، وتزيد في العطاء ، وقد أبدع إذ أتى بصورة بيانيّة أثّرت المعنى ، وأكّدت على أصالة الممدوح .

وكان من الطّبيعي أن يشيد بشرف أصل " همّام " سيّد تغلب في الإسلام ، فقال في ميمية بلغت ثلاثين بيتاً :

نَمى بك يا "هَمّامُ" شيخٌ ورَثتَهُ بنى لك والآباءُ بانٍ وهادِمُ
(القُطاميّ ، 1960 :131) .

وأثنى على كرم أصل قبيلته تغلب ، فهم سادة أمجاد ، ورثوه عن الآباء والأجداد ، من خلال مدحه لسيدهم " همّام " في رائية بلغت سبعة عشر بيتاً ، إذ قال :

غطاريفُ يَدعون الكريــمَ أخاهــم   وإن لم يكنْ فيهم له مِنهُمُ صَهرُ
وتغلِبُ حَيَّ وَرَّثَ المجدَ وائلاً   مَراسِلُهـا حُشدٌ مرافِدُها غُزرُ
(القُطاميّ ، 1960 : 125) .

واللّافت للانتباه – كما ذكرنا آنفاً – أنّ القُطاميّ كان نفسه محور الحديث مع ممدوحه ، لا مجرّد مادح يطلب المال فقط ، فهو يمدح نفسه وقومه أحياناً بالإضافة إلى مدحه للممدوح ، وإن قدّم له معروفاً لا يُنسى .

بعد أن أثنى على ممدوحه " زفر" في عينيه بلغت واحداً وسبعين بيتاً ، واعترف بفضله إذ أكرمه وأعاد إليه توازنه ، راح يمدح كرم أصل قومه ، السّادة العظماء أصحاب الأخلاق العظيمة ، فقال :

فلم أرَ منعمينَ أقلَّ منـّا   وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا
من البيضِ الوجوهِ بني نُفَيل   أَبَت أخلاقُهم إلاَّ اتّساعا
بني القَرمِ الّذي علِمَت مَعَدٍّ   تَفَضَّل فوقها سعةً وباعا
(القُطاميّ ، 1960 : 38) .

صاحب الخُلق الرّفيع ، والأصل المنيع ، الّذي ينتمي إلى أرومة عريقة ، وقبيلة شريفة ، وفيّ يقابل الإحسان بالإحسان ، كريم لا يُنكر الجميل ، وكأنّ القُطاميّ يريد أن يوصل هذه الرّسالة المهمّة إلى ممدوحه " زفر" ، وهو مرفوع الرّأس ، شامخ الجبين ، بأنّه ينتمي إلى قبيلة كريمة الأصل والمنبت ، ورث عنها المجد والسّؤدد ، يقول في ميميّة بلغت سبعة وعشرين بيتاً ، مدح فيها "زفر" مشيداً بقبيلته :

وقبلَ ابنِ النّعامةِ كنت نِكلاً   ملداً حين تنتطحُ الخصـومُ
فما أدنى نعامَةَ من أبينَـا   إذا عُدَّ الخؤولَةُ والعمـومُ
فخالي الشّيخُ صعصعةُ بنُ سعدٍ   وتنميني لاكرمِهـا تميـمُ
وترفِدُني الأراقـمُ كلَّ رفدٍ   وشيبانُ بنُ ثعلبةَ القرومُ
أبي عنه وَرِثتُ سـوامَ مَجـدٍ   وكلُّ أبِ سيورِثُ ما يسومُ
(القُطاميّ ، 1960 : 116) .

ومضى يُثني على أصالة قبيلته ، ويذكر رموزها وأعلامها أصالة وعراقة :

فما آلُ الحُباب إلى نفيلٍ   إذا عُدّ الممهلُ والقديمُ
كأنَّ أبا الحُبابِ إلى نفيلٍ   حمارٌ عَضَّهُ فَرَسٌ عَذومُ
بنى لك عامِرٌ وبنو كـلابٍ   أرومـاً مــا يوازِنُـهُ أروم
إذا عُدَّت هــوازنُ أو سُليـمٌ   فأنتم فَرعُها الشّرفُ الصّميمُ
وَجَدنا الصّعقَ كبشَ بني نَفيلٍ   حرى بالمجدِ قد علمَ العليمُ
(القُطاميّ ، 1960 : 116 – 117) .

هذا الفيض المتدفّق إشادة بأصالة منبت قبيلته ، يُعلن عن علاقة تكافؤ مع الممدوح ، فكلاهما من قبيلة ذات حسب ونسب أصلها كريم ، ومنبتها قويم ، علاقة حبّ واحترام وتقدير ، واعتراف بالجميل ، كلاهما محبّ للوئام والسّلام ، لذا كانت المشاعر فيّاضة ، والعاطفة نبيلة صادقة ، وقد تحقّق الهدف المنشود ، لكن لا وجود لأي ابتكار أو تجديد .

سيادة الممدوح ، وكيف أنّه يقدم الصّنائع ويصلح بين الأحياء :

الشّجاعة وكرم اليد والأصل فضائل ترتقي بصاحبها إلى أعلى درجات المجد والسّيادة والرّيادة في مجتمع عصر ما قبل الإسلام ، فإذا تسابق النّاس لإدراك غاية من المجد يُسوّد من سبق إليها ، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى :

إذا اِبتَدَرَت قَيسُ بنُ عَيلانَ غايَةً   مِنَ المَجدِ مَن يَسبِق إِلَيها يُسَوَّدِ
(ابن سلمى ، 1995 : 43) .

وقد كان التّسويد في القبيلة العربية معلماً من معالم وجودها السّياسيّ ، إذ كان لكلّ قبيلة سيّد يقودها ، وقد أشار أميّة بن أبي الصّلت إلى ذلك وهو يمدح عبد الله بن جعدان ، إذ قال :

لِكُلِ قَبيلَةٍ هادٍ وَرأسٌ   وَأَنتَ الرَأسُ تَقَدُمُ كُلَّ هادي
(ابن أبي الصّلت ، 1998 : 42)

لا شكّ أنّ معظم ممدوحي القُطاميّ سادة كرام ، أصلهم عريق ، ومنبتهم طيّب ، شرفهم قديم ، موروث عن الآباء والأجداد ، قال في ميمية بلغت ثلاثين بيتاً في مدح "همّام بن المطرّف" سيّد تغلب في الإسلام :

نَمى بك يا "هَمّامُ" شيخٌ ورَثَتَهُ   بنى لك والآباءُ بانٍ وهادِمُ
(القُطاميّ ، 1960 : 131) .

ومدحه في رائية بلغت سبعة عشر بيتاً بأنّه يُصلح بين القبائل ، ويقدّم الصّنائع بين الأحياء شأن السّيّد الواسع الأفق :

ألم تَرَ "همّاماً" فتى تغلِب الّذي   تعـاوره الأيـامُ واضطَرَّهُ الدَّهـرُ
بنى بَينَ حَيَّي وائـلٍ بصنيعـةٍ   فلا تغلِبٌ لامَت أخاها ولا بَكرُ
(القُطاميّ ، 1960 : 125) .

وفي إطار هذا المدح القبليّ ، مدح "أيوب بن القرّيّة" ، الّذي يلتقي به – أي القُطاميّ – في أجداده الأعلين (يُنظر ، ابن خلكان ، بلا تاريخ : 1 / 250) .

وبذلك يكون من عُصبه ، وهو سّيد قبيلته ، ومالك زمامها ، وهو عنوان عليها ، فقال :

سادَ ابنُ قيسٍ بيوتَ النَّمر واعترفت   لـه أتـمُّ ذراعٍ فوقَهـا غَرَبـا
مَـدَّ اليدينِ فلم تقصُـر أنامِلُـهُ   وأدرَكَ السّورةَ العُليا الّتي طَلَبا
"أيّوب" أنتَ إمامُ النَّمرِ إذ نُسِبت   إذا المخبّرُ عن مجهولِها نُسِبا
(القُطاميّ ، 1960 : 168) .

مدح قبليّ ، فيه احترام للأصل الكريم ، والعشيرة الأقربين ، كيف لا ، والقُطاميّ يضرب بنسبه إلى ذروة عالية ، وأصل كريم قديم .

ولم يتردّد في الثّناء على سيادة قيس ، في مدحه "لأسماء" بن خارجة" في نونيته ، الّتي بلغت ثمانية وخمسين بيتاً ، وقد كان أبوه سيّد غطفان :

غَطَفان سيِّدُهم أبوك وخيرُهم   ولدوك حين تذكروا الإحسانا
(القُطاميّ ، 1960 : 66) .

وبيّن في ميمة أخرى أنّ ممدوحه "زفر" استحق السّيادة بفضله وحزمه وشدّته ، فقال :

لَعَمري لَقَد سادَ ابنُ بَدرٍ بفضلِهِ ... على وُدِّ مسرورٍ بذاك وراغِمِ
وأنت الّذي ترجوكَ قيسٌ لفضلهِ ... وحتى لُكَيزٍ من وراءِ اللّهازِمِ
فَضُلت نزاراً يا ابن حُصنٍ تكرُّما ... وحزماً بِشدَّاتِ الفحولِ الصَّلادِمُ
بِحمَّـالِ أثقالٍ إذا خَطَـرَت بهِ ... فزارةُ في يومِ الثّأى المتفاقِمِ
(القُطاميّ ، 1960 : 71 – 72) .

وهو بذلك يسير على خُطا العرب في عصر ما قبل الإسلام ، فالمسوّد لا بُدّ أن تتوافر فيه شروط حتّى يصبح سيّداً على قومه .

غير أنّه في مدحه لعبد الملك بن مروان في الرّائية ، ذكر كلمة "الخلافة" ، إذ قال :

وقد حَمَلَ الخِلافَةَ ثم حَلَّ ... بها عند ابنِ مروانَ القرارُ
(القُطاميّ ، 1960 : 148) .

وفي مدحه للوليد بن عبد الملك في هائية لم تتعدّ عشرة أبيات ، استهلها بالوقوف على الأطلال ، وصولاً إلى الممدوح ، ذكر كلمة "الخليفة" ، و"الإمام" ، وهي ألفاظ دينيّة سياسيّة جديدة ، وكأنّه يؤكّد على أحقية بني أميّة في الخلافة ، طمعاً في جائزة ماليّة ، يقول :

أرجو الخليفَةَ إذ رَحَلتُ ميمّماً ... والّنفسُ تُدرِك في الرّحيلِ مُناها
وإذا علقتُ من الوليدِ بذمةٍ ... سكنت إليّ جوانحي وحَشاها
أنتَ الإمامُ ابنُ الإمامِ لأُمَّةٍ ... أضحى بكَفّكَ فَقرُهـا وغِناها
(القُطاميّ ، 1960 : 119) .

فقد ذُكر أنّه " أوّل ما حرّك من القُطاميّ ورفع ذكره أنّه قدم في خلافة الوليد بن عبد الملك دمشق ليمدحه ، فقيل له : أنّه بخيل لا يُعطي الشّعراء ، وقيل : بل قدمها في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقيل له : إنّ الشّعر لا يُنْفَقُ عند هذا ولا يُعطي عليه شيئاً ، وهذا عبد الواحد بن سليمان فامتدحه فمدحه " بهذه القصيدة (الأصفهانيّ ، 1992 ، 24 / 23) .

كان من الطّبيعي أن يختلف الوضع في مدحه "لعبد الواحد بن الحارث" ، الّذي كان والياً على المدينة في عهد عبد الملك بن مروان ، فله مدحة في لاميّة مشهورة بحسن المطلع ، منها :

أَهلُ المدينةِ لا يَحزُنكَ شأنُهم ... إذا تخطَّأَ "عبدَ الواحِدِ" الأَجلُ

استهل هذه اللاميّة الّتي انسابت في فضاء تعبيري بلغ ثلاثة وأربعين بيتاً بالوقوف على الأطلال ، والحكمة ، فالنّسيب ، ووصف الرّحلة ومعاناتها ، وصولاً إلى الممدوح ، وقد نجح في صهر معاناته في ثنائية القلق والأمل ، القلق إزاء شظف الحياة الصّحراويّة ، والأمل في تحقيق الهدف ، وقد حلّق في فضاء تفاؤليّ رحب إذ أخذ بمفتاح السّعادة ، مفتاح الغزل ، وحبّ المحبوبة ، وحبّه لتحقيق الهدف ، يقول مشيداً بقريش السّادة الأوّل الّذين ثبّتوا الإسلام :

أمَّـا قريشٌ فَلَـن تلقاهـم أبَداً ... إلّا وهم خيرُ مَن يحفى وَينتَعِلُ
إلاَّ وهُم جَبَلُ الله الّذي قَصُرت ... عَنه الجبـالُ ، فما ساوى به جَبَلُ
قَومٌ هُمُ ثبّتوا الإسـلامَ وامتنعوا ... قَومَ الرّسولِ الّذي ما بَعدَه رُسُلُ
مَن صالحوه رأى مِن عَيشهِ سَعةً ... ولا ترى مَن أرادوا ضَـره يثـِلُ
(القُطاميّ ، 1960 : 29) .

تحوّل الخطاب من الأنا إلى الآخر ، ومن الضّمير الأحادي إلى الضّمير الجمعي ، وكأنّ فضائل القوم مجتمعة قد اُختزلت في الممدوح ، مشكّلة مجموعة من القيم الدّينيّة والاجتماعيّة ،

بخاصّة أنّه أشاد بقريش الّذين ثبّتوا الإسلام ، بل الإشادة بالرّسول الكريم ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين .

ثم شكّل القُطاميّ من هذا الفيض ، وأصالة المنبت علاقة تكافؤ وتوحّد مع الممدوح ، فكلاهما في موقف الأخذ والعطاء ، فالشّاعر يُسدي إليه عبير ثنائه ، والممدوح يُزجي إليه سحائب جوده ، مشكّلاً منها خيطاً شعورياً كان بمثابة التّلاحم لثنائية القلق والأمل :

كَمْ نالني مِنهُمُ فضلٌ على عَدَمٍ ... إذ لا أكادُ مِن الإقتارِ أَحتَمِلُ
وَكَم مِنَ الدَّهرِ ما قد ثبّتوا قدمي ... إذ لا أزالُ مَعَ الأعداءِ أَنتَضِلُ
فلا هُمُ صالحوا مَن يبتغي عَنتي ... ولا هُمُ كدَّروا الخَيرَ الّذي فعَلُوا
هُمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ هُمُ ... والآخذون به والسَّاسَةُ الأُوَلُ
(القُطاميّ ، 1960 : 30) .

وقد حقق المادح أمله المنشود ، فقد ذكر صاحب الأغاني عن عمرو بن العلاء أنّ القُطاميّ عندما أنشد القصيدة لعبد الواحد : " فقال له : كم أملت من أمير المؤمنين ؟ قال : أملت أن يعطيني ثلاثين ناقة ، فقال : قد أمرت لك بخمسين ناقة مُوقَرَةً بُرّاً وتمراً وثياباً ، ثمّ أمر بدفع ذلك إليه " (الأصفهاني ، 1992 ، 24 / 23 – 24) .

وعلى نفس منوال اللاميّة السّابقة كانت الرّائية في مدح الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقد استهلها بالوقوف على الأطلال ، وذكر الأحبّة ، في جو تفاؤلي ، يعقبه عناء ومشقة ، ليمتزج الأمل بالألم ، وصولاً إلى غاية وسعادة ، فقد أشاد بقوم الممدوح ، فهم رُعاة ، وقوم المادح رعيّة ، وقد أشار إلى نسبه وصلته الوثيقة بقريش قبيلة الرّسول ﷺ ، وكأنّه يريد أن يؤكّد أحقية عبد الملك بالخلافة والحكم ، يقول :

فأينَ ذوو البطــاحِ ذُرا قريشٍ ... وأحـلامٌ لَهُـم ما تستعـارُ
ونحن رعِيـةٌ وهـم رُعـاةٌ ... ولولا رَعيُهُم شنع الشنارُ
فإن لم تأتَمِر رُشداً قريشٌ ... فليس لسائرِ العَرَبِ ائتمارُ
وفضلُهُمُ بإذنِ اللهِ صَبرٌ ... وضَرسٌ لِلأعادي واحتقارُ
فيا قومي هَلُـمَّ إلى جميعٍ ... وفيما قد مضى لكم اعتبارُ
(القُطاميّ ، 1960 : 142) .

لا شكّ في أنّ المعاني والمضامين تدور حول أحقية بني أميّة بالخلافة دون غيرهم من النّاس ، وفي ذلك تجديد لا يحتاج إلى أعمال عقل أو تفكير ، ولكنّه في الوقت نفسه كان يعزف على وتر حساس يجاري فيه الأقدمين ، إذ إنّ قريشاً كان لها السّيادة والرّيادة في عصر ما قبل الإسلام ، فقد قال : " فليس لسائر العرب ائتمار " .

ولم ينسَ القُطاميّ قومه في هذه الرّائية المخصّصة لمدح الخليفة عبد الملك بن مروان ، فقد مدّ يد العطاء مرفوع الرّأس ، مُشيداً بسيادة قومه تغلب ، مفتخراً بهم ، فهو نفسه محور الحديث مع ممدوحه ، لا مجرّد مادح يطلب العطاء ، فقال :

فصارت بالجّدودِ بنو نِزارٍ ... فَسِدناهم ، وأثعلت المضارُ
فكان لنا وللمضـرين حظٌّ ... وللحُسّـادِ في الأثَرِ الغبارُ
فصار العِزّ والبَسَطـات فينـا ... وأعـلامٌ قدامِسَـةٌ كبـارُ
ومنـّا الأنبيـاءُ وكُـلُّ مَلكٍ ... وحُكّـامُ الأئمةِ حيثُ صاروا
غَلَبنا النّاسَ في الدّنيا بفضلٍ ... ونرجــو أن يكونَ لنا المحارُ
وإسماعيـلُ بعـد اللهِ يقضي ... لنا بالحقِّ اذ رُفِعَ الخطارُ

فعندي الفصلُ للجّهّالِ منكم كمنهــاجِ الطّريــقِ به المنارُ
(القُطاميّ ، 1960 : 146) .

لا شكّ في أنّ ممدوحي القُطاميّ سادة كرام يستحقون الثّناء ، فقد توافرت فيهم شروط السّيادة ، بغضّ النّظر عن تفاوت صلته بهم ، وتجويده وإبداعه في مدحهم ، وهو كالعادة يُثني على ممدوحه ، وعلى قوم ممدوحه ، ولا ينسى قومه الّذين كانوا سادة ، فهو يطلب العطاء مرفوع الرّأس ثابت الجنان ، وقد ظهرت في إشادته بسيادة ممدوحه ألفاظ دينيّة جديدة ، مثل : "الخلافة" ، و"الخليفة" ، و"الإمام" ، وقد أشاد بقريش قوم الرّسول المصطفى الّذين ثبّتوا الإسلام ، ومع ذلك فقد سار على نهج الأقدمين في مدحهم لساداتهم وكبرائهم .

الخاتمة :

توصّل البحث إلى النّتائج الآتية :

1. القُطاميّ شاعر مدّاح ، خبير بالأمور الّتي تحرّك اليد للعطاء ، خبير بالمواصفات والتّقاليد ، يعرف من أين تُؤكل الكتف ، يعزف على وتر حسّاس ، يمدح المرء بما يناسبه ، حتّى يطربه ويحرّكه للعطاء .
2. خضعت معظم مدائحه لنظام القصيدة المدحيّة الّتي تغلب عليها تعدد الموضوعات ، بدءاً بالوقوف على الأطلال ، وصولاً إلى غرض المدح ، إذ أدرك أنّها كانت في الشّعر الجاهليّ رمزاً لشعور إنساني من صميم إحساس المرء بمعاناته في الحياة بخاصّة أنّ العربي عاش في كَبَد ، وقد كانت موضوعاته مترابطة ، متآلفة في تيار شعوريّ واحد ، وقد وصف الرّحلة وما يعانيه في الصّحراء ليُرضى – أحياناً – نزعته الفنيّة في مجاراة الأقدمين ، ويرضي الممدوح في تهويل ما لاقى في طريقه إليه من أهوال ؛ ليحظى بعطاء وافر ، ومع ذلك جوّد في بعض مدائحه عندما كان همّه العطاء ، مستغلاً إمكانياته الفنيّة .
3. قد تطول مقدّمته الطّلليّة طولاً لا يكاد يذكر بجانبه ما يقول في غرضه الأصلي المدح ، وفي ذلك هروب من مواجهة الشّخصيّة والتّعمّق في جوانبها إلى الكلام العام أحياناً كما فعل مع "أسماء بن خارجة" ، وإلى ترك شخصية الممدوح ومدح قبيلته أحياناً ، فهو لا يكاد يأخذ في مدح "عبد الواحد" حتّى يتركه ويمدح قريشاً ، وحين يمدح الخليفة "عبد الملك" يمدح قريشاً ، ويمسّ الممدوح آخر الأمر مسّاً خفيفاً .
4. سار على نهج أسلافه ، ونهل من الموروث القديم ، غير أنّ بعض معانيه دارت حول الدّين ، والجهاد ، والسّاسة ولكن بقدر ، وربما قد مسّ تجديداً في مدحه "لزفر" ، معترفاً بالجميل .
5. يمكن تقسيم شعر مدحه إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : صادر عن إخلاص صادق ، تمثّل في مدحه "لزفر بن الحارث" ، الّذي أعاد إليه كرامته ،وأحبّه ، وتأثّر به .

الثّاني : مدح قصد به طلب العطاء ، وهو قسمان : قسّم جوّد فيه واعتنى به ، تمثّل في مدحه "لأسماء بن خارجة" ، والآخر لم يجوّد فيه إلّا قليلاً ، تمثّل في مدحه الخليفة "عبد الملك بن مروان" ، وابنه "الوليد" ، والوالي "عبد الواحد" .

والثّالث : قصد به خدمة العصبيّة القبليّة ، والشّخصيّة الذّاتيّة .

6. استعمل ألفاظاً دينيّة في مدحه لعبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وللوالي عبد الواحد بن سليمان ، وكأنّه يحاول تأكيد ولائه للأمويين .

7. توافر الصّدق الفنيّ والنّفسيّ في مدحه "لزفر بن الحارث" ، الّذي كانت شخصيته مصدر وحي له ، فقد جوّد في مدحه بمقدار حبّه له ، واعترافه بالجميل ، وتوافر الصّدق الفني في باقي مدائحه بدرجات متفاوتة .
8. قلة الصّور الخياليّة في مدائحه .
9. جمع بين الجزالة والرّقة في أسلوبه ، وموسيقاه هادئة رزينة تطرب الأذن والنّفس ، وترضي العقل والشّعور ، تستوي في ذلك موسيقا الألفاظ ، والأسلوب ، والبحور الشّعرية .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الأثير ، الإمام أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 620هـ)

1. الكامل في التّاريخ ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1407 هـ – 1987 م .

- أبو الأسود الدّؤلي : ظالم بن عمرو (ت 69 هـ) .

2. ديوانه ، صنعه أبي سعيد الحسن السّكري ، تحقيق : الشّيخ محمّد حسن آل ياسين ، دار مكتبة الهلال ، ط 2 ، 1418 هـ – 1998 م .

- الأصفهاني : أبو الفرج (ت 356 هـ) .

3. الأغاني ، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ : عبد أ. عليّ مهنا الأستاذ سمير جابر ، طبعة جديدة مصحّحة ومنقّحة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1412 هـ – 1992 م.

- بدران ، عبد القادر أفندي .

4. تهذيب ابن عساكر ، طبعة روضة الشّام (بلا تاريخ) .

- البغدادي : عبد القادر بن عمر (ت 1093 هـ) .

5. خزانة الأدب ، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط 4 ، 1418 هـ – 1997 م .

- أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي (ت 231 هـ) .

6. ديوان الحماسة ، شرحه وعلّق عليه أحمد حسن بسج ، منشورات دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1418 هـ – 1998 م .

- ابن ثابت – حسّان (ت 54 هـ) .

7. ديوانه . شرح د. يوسف عيد ، دار الجيل – بيروت – ط 1 1412 هـ – 1992 م .

- الجّاحظ : أبو عثمان بن عمر بن بحر بن محبوب (ت 255 هـ)

8. البيان والتّبيين ، تحقيق عبد السّلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 5 ، 1985م.

- جرير : ابن عطية بن الخَطَفي بن يربوع التّميمي (ت 114 هـ) .

9. ديوانه ، دار صادر ، بيروت (بلا تاريخ) و(بلا طبعة) .

- الجعدي : النّابغة .حبان بن قيس بن عبد الله (ت 50 هـ تقريباً) .

10. ديوانه ، جمعه وحقّقه وشرحه د. واضح الصّمد ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1998م.

- ابن جعفر ، قدامة ، أبو الفرج (ت 310 هـ) .

11. نقد الشّعر ، تحقيق وتعليق د. محمّد عبد المنعم خفاجي ، المكتبة الأزهريّة للتّراث ، ط 1 ، 1426 هـ - 2006 م .

- الجمحي : محمّد بن سلاّم (139 - 231 هـ) .

12. طبقات فحول الشّعراء ، منشورات محمّد علي بيضون ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، 1422 هـ - 2001 م .

- ابن الجوزي : جمال الدّين أبي الفرج بن عبد الرّحمن البغدادي (597 هـ).

13. نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس ، إدارة الطّباعة المنيريّة ، القاهرة (بلا تاريخ) .

- ابن حجر : الحافظ شهاب الدّين أبي الفضيل العسقلانيّ (773 - 852 هـ) .

14. الإصابة في تمييز الصّحابة ، مطبعة السّعادة ، مصر ، ط 1 ، 1328هـ .

- ابن رشيق : أبو عليّ الحسن القيروانيّ الأزديّ (ت 456 هـ) .

15. العمدة ، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه محمّد محيي الدّين عبد الحميد - دار الطّلائع ، القاهرة ، ط 1 ، 2006 م .

- ابن أبي سُلمى : زهير المزنيّ الغطفانيّ (ت 609 م) .

16. ديوانه . تقديم وشرح وتعليق ، د. محمّد محمود ، دار الفكر اللّبنانيّ ، بيروت ، ط 1 ، 1995 م .

- ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت 458 هـ) .

17. المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق عبد السّتّار أحمد فرّاج ، معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية ، ط1 ، 1985 م .

- الشّهرستاني : أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت548 هـ)

18. الملل والنّحل ، تحقيق محمّد سيد كيلاني ، دار المعرفة للطّباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، أُعيد طبعه بالأوفست 1395 هـ - 1975 م .

- ابن أبي الصّلت ، أميّة (ت 5 هـ) .

19. ديوانه ، جمعه وحقّقه وشرحه د. سميع جميل الجبيلي ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 1998 م .

- الفرزدق : همّام بن غالب بن صعصعة (ت 110 هـ) .

20. ديوانه ، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له د. عمّر فاروق الطّباع ، شركة دار الأرقم للطّباعة والنّشر والتّوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1418 هـ - 1997 م .

- ابن قتيبة : أبو محمّد عبد الله بن مسلم الدّنيوي (ت 276 هـ) .

21. الشّعر والشّعراء ، تحقيق أحمد محمّد شاكر ، دار المعارف ، 1377هـ - 1958م .

- القُطاميّ ، عمير بن شييم التّغلبي (ت 101 هـ) .

22. ديوانه ، تحقيق د. إبراهيم السّامرائي ، أحمد مطلوب ، دار الثّقافة ، بيروت ، ط 1 ، 1960 م .

- القُطاميّ ، عمير بن شييم التّغلبي (ت 101 هـ) .

23. ديوانه ، دراسة وتحقيق د. محمود الرّبيعي ، الهيأة المصرية العامّة للكتاب 2001 م .

- ابن قيس الرّقيات ، عبيد الله (ت 85 هـ)

24. ديوانه ، تحقيق وشرح د. عزيزة فوّال باني ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1 ، 1416 هـ – 1995 م .

– المبّرد : أبو العبّاس محمّد بن يزيد (ت 285 هـ) .

25. الكامل ، حقّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه د. محمّد أحمد الديالي ، مؤسّسة الرّسالة ، ط 3 ، 1418 هـ – 1997 م .

– المرزباني : أبو عبيد الله محمّد بن عمران بن موسى (ت 384 هـ) .

26. معجم الشّعراء ، تحقيق د. فاروق اسليم ، دار صادر ، بيروت ، 1425 هـ – 2005م.

– المرزوقي : أبو عليّ أحمد بن محمّد بن الحسن (ت 384 هـ) .

27. شرح ديوان الحماسة ، نشره أحمد أمين ، عبد السّلام هارون ، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ، ط 1 ، القاهرة 1371 هـ – 1951 م .

– المفضّل الضّبي : أبو العبّاس المفضّل بن محمّد (ت 178 هـ) .

28. المفضّليات ، شرح أبو محمّد القاسم بن محمّد بن بشّار الأنباري ، عُنِي بطبعه ومقابلة نسخه وتذيله بحواشي وروايات لعدّة لغويين وعلماء كارنوس يعقوب لايل ، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت 1920 م ، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنّى بغداد لصاحبها قاسم محمّد الرجب (بلا تاريخ) .

المراجع :

– الجبوري : د . يحيى وهيب .

1. الشّعر الجاهليّ خصائصه وفنونه ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ، ط 6 ، 1993م.

– أبو حاقة ، أحمد .

2. فن المديح وتطوّره في الشّعر العربيّ ، منشورات دار الشّرق الجديد ، بيروت ، ط1 (آذار ، مارس) 1962 م .

– حسين : د. سيد حنفي .

3. الشّعر الجاهليّ ، مراحله واتجاهاته الفنيّة " دراسة نصيّة " ، الهيأة المصريّة العامة للتّأليف والنّشر ، (بلا تاريخ) .

– الحوفي : د. أحمد محمّد .

4. أدب السّياسة في العصر الأموي ، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر ، ط 3 ، 1388 هـ– 1969 م .

– خليف : د. مي يوسف

5. قضية الالتزام في الشّعر الأمويّ ، دار الثقافة للنّشر والتّوزيع ، القاهرة ، 1989 م .

– الدّسوقي ، عمر .

6. الفتوّة عند العرب ،أو أحاديث الفروسية والمثل العليا ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، مطبعة لجنة البيان العربي (بلا تاريخ) .

- الرّفاعي : محمّد محمود .

7. شرح الهاشميات للشّاعر الشّهير الكميت بن زيد الأسديّ (ت 162 هـ) – طبع بمطبعة شركة التّمدّن الصّناعية بمصر ، ط 1 ، (بلا تاريخ) .

- الشّايب : الأستاذ أحمد .

8. تاريخ الشّعر السّياسيّ إلى منتصف القرن الثّاني ، دار القلم ، بيروت ، لبنان (بلا تاريخ) .

- الشّريف : د. عون القاسم .

9. شعر البصرة في العصر الأموي ، دراسة في السّياسة والاجتماع ، دار الثّقافة ، بيروت ، لبنان 1392 هـ – 1972 م .

- شيخو : لويس شيخو

10. شعراء النّصرانية بعد الإسلام – ط 2 – دار المشرق بيروت (بلا تاريخ) .

- ضيف : د. شوقي .

11. العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 19 ، 1960م .

12. العصر الإسلامي ، دار المعارف بمصر ، ط 2 ، 1963 م .

- عباس : د. إحسان .

13. شعر الخوارج ، دار الثّقافة ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1974 م .

- غُريّب ، زكي عابدين .

14. القطامي حياته وشعره ، الإسكندرية ، ط 2 ، 1995 م .

- القاضي : د. النّعمان عبد المتعال .

15. الفرق الإسلاميّة في الشّعر الأموي ، دار المعارف بمصر (بلا تاريخ) .

- القط : د. عبد القادر .

16. في الشّعر الإسلاميّ والأمويّ ، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر ، بيروت 1407هـ – 1987 م .